



# مراجعات

ذو الحجة 1438 هـ - سبتمبر 2017م

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

## الصفحة الأولى...

### هلال الحجري

من الأطروحات العمانية التي أنجزت في الخارج دراسة دكتوراه بعنوان «السلوكيات والمعلومات التي يتطلبها دارسو العلوم الاجتماعية في جامعة السلطان قابوس في عُمان: تطبيق منهج متعدد الطرائق»، قدمها محمد بن ناصر الصقري لجامعة إمبروريا ستيت، في كنساس بالولايات المتحدة الأمريكية، سنة 2007.

يذكر الباحث في ملخص دراسته أن أطروحته تتناول السلوكيات والمعلومات التي يتطلبها دارسو العلوم الاجتماعية في جامعة السلطان قابوس في عمان، كمنال على دولة نامية في الشرق الأوسط، وتهدف، أساساً، إلى وضع نموذج ينطبق على دارسي العلوم الاجتماعية في البلدان النامية عموماً، وعُمان على وجه الخصوص. ويضيف الباحث بأن دراسته تجيب على هذين السؤالين: (أ) كيف يقوم دارسو العلوم الاجتماعية في جامعة السلطان قابوس بتحديد المعلومات المتصلة بمجالاتهم واستخدامها، ولا سيما الموارد الإلكترونية وغيرها من التقنيات الناشئة لتلبية احتياجاتهم البحثية والتدريسية؟ و (ب) هل تختلف هذه الأنماط بنوع الجنس، أو العمر، أو الرتبة الأكاديمية، أو القسم، أو الكلية، أو لغة البحث المفضلة؟ وقد ناقش الباحث المصادر الرسمية وغير الرسمية للمعلومات والموارد الإلكترونية التي يستخدمها دارسو العلوم الاجتماعية، فضلاً عن الحواجز التي تحول دون البحث عن المعلومات. بالإضافة إلى ذلك، تمكن من تحديد الحواجز التي تؤثر على سلوك الباحثين عن المعلومات.

ويؤكد الباحث أنه قد أجرى دراسته ضمن إطار مفاهيمي يستند إلى توليف نماذج لسلوك البحث عن المعلومات معروفة لكل من ويلسون (1996)، وايس (1989)، وكوثاو (1991)، إضافة إلى عناصر أخرى تمثل بيئة المعلومات، وتحديد الموقع وشكل موارد المعلومات. ويصف النموذج نمطاً من سلوك الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية يتضمن ثمان مراحل عامة: الاستهلال، والاستكشاف، والرصد، والتصنيف، والغربة، واختيار الموارد، والجمع، والإنهاء. ويضيف أنه جمع البيانات من خلال منهج متعدد الطرائق الكمية والنوعية، وقد تألفت الطريقة الكمية من استبيان مسح منظم أرسل إلى جميع دارسي العلوم الاجتماعية في الجامعة خلال العام الدراسي 2006-2007، وتألفت الطريقة النوعية من 21 مقابلة عبر البريد الإلكتروني، و16 مقابلة وجها لوجه، وأربع مجموعات مركزية من دارسي العلوم الاجتماعية تم اختيارها بشكل هادف.

ويؤكد الباحث أن دراسته توصلت إلى أن المشاركين في هذه الدراسة، كغيرهم من المختصين في العلوم الاجتماعية في العالم، يستخدمون الموارد الإلكترونية استخداماً متزايداً، ولكنهم يفضلون المواد المطبوعة والمصادر غير الرسمية للمعلومات، وكانت عملية البحث التي استخدموها مماثلة عموماً لعملية نظرائهم في أماكن أخرى. وأظهرت النتائج أيضاً أن الباحثين في العلوم الاجتماعية في جامعة السلطان قابوس في عمان يواجهون ثلاثة أنواع رئيسة من الحواجز أمام البحث عن المعلومات، قد تختلف عن تلك التي يواجهها نظراؤهم في البلدان الغربية: (أ) محدودية الموارد المتاحة، وخاصة موارد النص الكامل؛ و (ب) ضعف سرعة الاتصال بالإنترنت أو توافر الإنترنت؛ و (ج) الافتقار إلى مصادر كافية باللغة العربية. إضافة إلى ذلك، تبين للباحث أن الاحتياجات المعرفية وممارسات البحث عن المعلومات تختلف حسب العمر، والرتبة الأكاديمية، والقسم الأكاديمي، والكلية.

وأخيراً، يؤكد الباحث أن قابلية تطبيق النموذج الذي طورته هذه الدراسة قد تم اختبارها بنجاح، وتبين أن ممارسات البحث عن المعلومات لدى متخصصي العلوم الاجتماعية يمكن أن تتطابق بسهولة مع مراحل النموذج؛ مما يشير إلى أن سلوك البحث عن المعلومات يتبع عموماً مراحل وأنماطاً قابلة للتطبيق عالمياً، وأن نموذجاً يتم تطويره على أساس البحث في منطقة واحدة من العالم يمكن نقله إلى مناطق أخرى.

تتكون هذه الأطروحة من سبعة فصول وثلاثة عشر ملحقاً.



• «دراسة نقدية حول تيار الوسطية الإسلامية المعاصرة»  
• دينج جون



• الطوافة  
• نادر هاشمي وداني بوستل



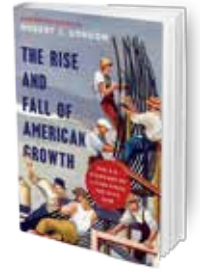
• «التفكير في الإنساني زمن الإنسان المعزز: تحديات الترانس-إنسانية»  
• لتيري ماغنين



• «المستبعدون»  
• آرتور دوموسلافسكي



• «من يخاف من محمد»  
• مارسيل هلسبس



• «صعود النمو الأمريكي وسقوطه»  
• روبرت جوردون



• «كيف نقرأ التراث الجاهلي؟»  
• أرئيل روط



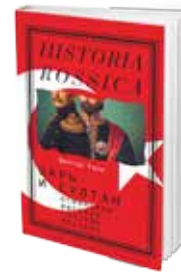
• «تفسير القرآن، مساهمة في التنوير»  
• تنسيق فيلي شتويل، مجموعة من المؤلفين.



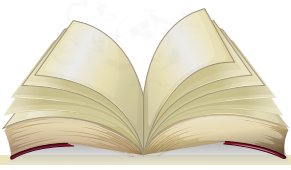
• «تكنولوجيا إدارة الأموال في الغد القريب»  
• هونغ جانغ وون



• «حرب بالوكالة»  
• نيكولاي ستاريكوف



• «الملك والسلطان (الإمبراطورية العثمانية بعيون روسية)»  
• فيكتور تاكي



# «التفكير في الإنساني زمن الإنسان المعزز: تحديات الترانس-إنسانية».. لتيري ماغنين

محمد الحداد \*

يعيش عالمنا اليوم تقاطع ثلاث ثورات: ثورة الاقتصاد المعولم، والثورة الرقمية الاتصالية، والثورة البيوتقنية. ولا يمكن فهم إحدى هذه الثورات دون فهم الأخرى وتحديد العلاقة بينها، وإذا كنا ندرك اليوم الانقلابات التي تحصل في حياتنا بأثر الثورتين الأولتين، فإن نتائج الثورة الثالثة تظل غامضة؛ لأنها تحصل في المخابر، وبعيدا عن أضواء السياسة والإعلام، لكنها قد تكون الأكثر تأثيرا في حياة البشر مستقبلا.

مقاربة موضوع الثورة البيوتقنية يتطلب أولا: فهم طبيعتها، وثانيا: فهم الرهانات الفلسفية والأخلاقية الخطيرة المرتبطة بها، وثالثا: فهم التيار المدعو بـ«الترانس-إنسانية» (تغيير الهوية الإنسانية)، والذي يختلط أحيانا بالثورة البيوتقنية ذاتها، مع أنهما مترابطان دون أن يكونا مترادفين، كما سنرى.

الصينيين عن تجربة شملت ٨٣ جنينا بشريا تم «إصلاح» أو «تحسين» خلاياها. وفي شهر يونيو ٢٠١٦، نشرت مجلة «علم» (Science) -المرموقة جدا- إعلانا وقعته ٢٥ شخصية أمريكية، تعلن التزامها بالعمل على توفير المقابل الصناعي للمليارات الستة من النوتيدات (الوحدات الفرعية للدنا) التي تكون الجينوم البشري. ومن بين الشخصيات الموقعة على هذا البيان نجد العديد من الأسماء التي تنتمي إلى تيار «الترانس-إنسانية»؛ منها: عالم البيولوجيا المشهور جورج شورش، الذي كان قد أصدر سنة ٢٠١٢ كتابا مثيرا للجدل، سعى فيه لإثبات أن البيولوجيا التركيبية أصبحت قادرة على إعادة صنع الإنسان. أما المؤسسة العملاقة «جوجل» -التي تعرف كل شيء عنا، بفضل متابعة حركاتنا على الشبكة العنكبوتية- فإنها قد أعلنت عن توفير خط تمويلي دون حدود لأحد أكبر راديكاليي التيار الترانس-إنساني: راي كوزوال، الذي يعد بالقضاء على الموت قبل نهاية الألفية الحالية. وفي الأثناء، أصدرت عدة شخصيات مرموقة؛ مثل بيل جيتس (صاحب مؤسسة «ميكروسوفت»)، وعالم الفيزياء المشهور ستيفن هوكينج تحذيرات بشأن المخاطر التي تتضمنها هذه المبادرات، تضاف إلى مواقف متحفظة وردت في كتابات شخصيات فكرية مشهورة؛ مثل: الفيلسوف الألماني يورغان هابرماس، وعالم السياسة فرانسيس فوكويوما. بينما أصدرت منظمة «اليونسكو» وثيقة تدعو لتوقيف مؤقت لأبحاث إنتاج الدنا والخلايا التوالدية، تجنباً لتغييرات على بعض الكائنات البشرية تتعارض مع القواعد الأخلاقية، وتفتح المجال إلى شكل جديد من التحكم بالنسل (كما حدث مع النازية).

كتاب تيري ماغنين يساعدنا على فهم هذا الموضوع المعقد في جوانبه العلمية والتقنية من جهة، وفيما يثيره من مشاكل فلسفية وأخلاقية من جهة أخرى؛ لأن المؤلف يجمع بين التكوين العلمي -فهو متخصص في الفيزياء، ودرس هذه المادة أكثر من ربع قرن في مؤسسات جامعية- وهو أيضا عضو في الأكاديمية الكاثوليكية التي تتخذ موقفا نقديا من كل محاولات اصطناع الحياة أو إخضاع الإنسان إلى الآلة. من هنا، فإن الكتاب يحتوي في جزء

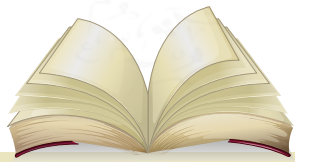
ذلك: إبداء مظاهر الفرح أو الحزن، والاتصال آليا عند الضرورة بالأبناء، أو المصالح الطبية طلبا للنجدة.

لقد رصد أحد التقارير المعدة في موضوع البيوتقنية اثنتي عشرة اختراعا متوفرة حاليا يتوقع أن تنتشر قريبا وتغير العديد من ملامح الحياة. لكن الثورة البيوتقنية تطرح مشاكل: يمكن أن نتساءل إذا ما كانت الدمية البشرية ستساعد كبار السن في اليابان أم أنها ستنسى الأبناء واجباتهم تجاه آبائهم، وتقضي على قيم احترام الكبار الراسخة منذ قرون في الثقافة اليابانية؟ ومن يتحمل المسؤولية في حادث مرور أحد أطرافه سيارة يقودها إنسان آلي؟ من جهة أخرى، عرض في باريس شهر مايو ٢٠١٦ إنسان آلي دعي «أطلس ٢٠١٦»، تبلغ قامته ١,٧٥ متر ويزن ٨٢ كجم، وهو معد للقيام بالعديد من الأعمال الحربية، وقادر على التعديل الذاتي لهذه المهام حسب ما يطرأ أمامه من عوائق؛ بما يفسح المجال في المستقبل لظهور كتائب حربية أو فرق كومندوز مكونة من جنود آليين (لنتذكر أهمية الطائرات دون طيار التي ظهرت في السنوات الأخيرة في تغيير طرق حوض المواجهات الحربية)، وماذا لو استطاعت منظمة إرهابية تصنيع مثل هذا الإنسان الآلي وتفخيخه واستعماله في التفجيرات والعمليات الإرهابية؟

كان يمكن أن نأخذ مثلا ثانيا عن الثورة البيوتقنية، وهو تعديل الجينوم البشري ومكونات الدنا (DNA)، من المعلوم أن المشروع العالمي الذي قاده الولايات المتحدة الأمريكية للكشف عن الشفرة الوراثية للإنسان، أو الجينوم البشري، قد انتهى بنجاح باهر وأصبحت كل مكونات الجينوم معروفة لدى البيولوجيين. لكن البعض يتساءل: هل سنقف عند هذا الحد؟ أم سيدخل الإنسان مرحلة جديدة تتضمن إنتاج جينومات اصطناعية تعوض ما يصيبه العطب في جسم الإنسان بسبب الأمراض أو الحوادث؛ بما يعني صناعة المكونات القاعدية للإنسان، ثم في مرحلة أخرى صناعة بدائل للأعضاء البشرية؟ توجد معاهدة عالمية تمنع حاليا المرور إلى هذه المرحلة، لكن الصين والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لم توقع عليها. وفي أبريل ٢٠١٥، أعلن فريق من البيولوجيين

أحيانا، تعرض وسائل الإعلام العالمية بعض الابتكارات التي تعتبر نتيجة الثورة البيوتقنية. على سبيل المثال: نعلم أننا استقبلنا منذ سنوات الجيل الثالث للإنسان الآلي الذي لم يعد فقط قادرا على التفوق على الإنسان في الألعاب الفكرية، ولكن أيضا على إبداء انفعالات «نفسية» تقربه من الإنسان. الإنسان الآلي سيقضي قريبا -في المجتمعات الصناعية- على العديد من المهن البشرية؛ مثل: مهنة الراقدة، والمترجم، والمعيونة المنزلية؛ إذ سيصبح قادرا على القيام بهذه الأعمال بتكلفة أقل ونجاعة أكبر، بل سيصبح قادرا أيضا على قيادة السيارة أو حوض الحروب بدل الجندي الإنساني. ميزة الجيل الثالث من الإنسان الآلي أنه لم يكن نتيجة تطور التقنية فحسب، وإنما كان أيضا نتيجة الأبحاث التي قام بها البيولوجيون على الإنسان لمعالجة أمراض مازالت غامضة؛ مثل: ألزهايمر أو باركنسون، وقد مكنتهم في الأثناء من فهم العديد من الظواهر وتطبيقها على الإنسان الآلي. هذا الالتقاء بين التقنية والبيولوجيا هو الذي فجر الثورة البيوتقنية.

وفي يونيو ٢٠١٤، قدم اليابانيون «الدمية البشرية» التي أذهلت العالم؛ إذ لم تكن قادرة على الحركة السلسلة فحسب، وإنما كانت قادرة على فهم ما يحيط بها والتفاعل معه وإبداء علامات الحزن أو الغضب أو الفرح. وقد وعد أصحاب المبادرة آنذاك بتطوير هذه الدمية إلى حد سيصبح عسيرا التمييز بينها وبين كائن بشري. وليس صدفة أن يكون اليابانيون الأكثر تقدما في هذا المجال؛ فالثقافة اليابانية تتميز بشدة الاحترام لكبار السن، لكن الحياة الحديثة لم تعد تسمح للأبناء برعاية آبائهم وأجدادهم، والاقتصاد الوطني لم يعد يتحمل النفقات الباهظة التي تخصصها الدولة لتوفير معينات منزلية لهؤلاء أو استقبالهم في مؤسسات رعاية متخصصة. الجيل الثالث من الإنسان الآلي سيوفر بأقل تكلفة «دمية بشرية» لكبار السن تكون قادرة على رد التحية وفهم ما يطلب منها، والتلفظ بالعديد من العبارات، وتسليية صاحبها بالغناء والرد على ما يطرحه عليها من أسئلة معرفية، وقيادة سيارته عند الطلب، ثم الأكثر من



فلسفة بديلة عن الترانس-إنسانية لا تقوم على رفض التقنيات الجديدة، ولكن على تأطيرها، وأن هذه الفلسفة البديلة تعتمد أبحاث هانس جوناكس في إيتيقا الحضارة التكنولوجية، وأعمال الفيلسوف هابرماس، ومفهوم «الأيكولوجيا الشاملة» الذي طوره الفيلسوف غولتبييه بيس، والرسالة البابوية «كن مسبحاً» (راجع تقديمنا لهذه الرسالة في ملحق أكتوبر ٢٠١٥).

أنصار الترانس-إنسانية يردون على هذا النوع من الاستدلالات بأنها دون فائدة، ولا يمكن أن توقف التطور العلمي، وأن التطورات العلمية أحدثت دائماً حالات من الفزع سرعان ما يتم تجاوزها عندما يدرك الناس المنافع التي ستتاح لهم. وكثيراً ما يستشهد أصحاب الفلسفة الترانس-إنسانية بمثال الإجهاض أو طب التجميل، فكل النقاشات الأخلاقية والإدانات الدينية لم تمنع الناس من التوجه نحو هذا النوع من العمليات، ويؤكدون أن عمر البشر قد ارتفع في المجتمعات الغربية منذ الثورة الصناعية، وأنه سيرتفع مجدداً بفضل الثورة البيوتقنية ليصبح بلوغ مئة سنة مثلاً مسألة عادية جداً في المستقبل، ويرون أن الموت لا يعدو أن يكون تآكل خلايا، ولو تم العثور على طريقة لمنع هذا التآكل أو إبطائه فيسودي إلى «موت الموت»، أو على الأقل تأخيرها، مثلما أن الطب لا يستطيع اليوم القضاء على بعض الأمراض، لكنه أصبح قادراً على تأخيرها، وليس مستبعداً أن تتطور تقنيات التأخير إلى أن تصبح تقنيات قضاء. وهم يحتجون بأن المسالك الوحيدة المتاحة اليوم للتخلص من السرطان أو ألزهايمر أو باركينسون (وهي أمراض المجتمعات المتقدمة)، تمر كلها بتقنية تعديل الجينات والخلايا، وأن وضع تشريعات تضيق التطور العلمي هو حكم على مئات الآلاف من البشر بالألم والموت، في وضع أصبح فيه ممكناً تقديم حلول طبية لمشاكلهم.

وفي النهاية، تؤول القضية إلى السؤال عن ماهية الإنسان وعلاقته بالكون والعدم. وأمام الثورة البيوتقنية الحالية، يفتح هذا السؤال الفلسفي القديم للمراجعة وإعادة التفكير، في ظرف مختلف تماماً عن ممارسة الفلسفة في السابق؛ فقد أصبح السؤال مرتبطاً بنتائج اجتماعية مباشرة، فهل ستنتج الفلسفة في إدارة هذه النقاش النظري والمجتمعي في الآن ذاته، أم أن المنطق التقني سيفرض نفسه، لا سيما وأنه مرتبط اليوم بالمرابيح الخيالية التي يمكن أن تتحقق من جراء إتاحة هذه التقنيات لعموم الناس؟ وهل ستختار الدول التشريع والتعديل، أم تتبنى موقفاً ليبرالياً، وتترك الاختيارات مفتوحة للأفراد والمبادرات الفردية؟

-----  
- الكتاب: «التفكير في الإنسان زمن الإنسان المعزز: تحديات الترانس-إنسانية».

- المؤلف: تيري ماغنين.

- الناشر: ألبان ميشال - فرنسا، ٢٠١٧م، بالفرنسية.

- عدد الصفحات: ٢٩٥ صفحة.

\* أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة  
للأديان



أصبح جزءاً من حياة الأمريكيين، لكنه يظل مرفوضاً في مناطق أخرى من العالم، فتعدل جينات الإنسان مثلما تعدل اليوم ذرات القمح والذرة. وكما أن تعديل القمح والذرة يجعلها أكثر قدرة على تحمل قسوة المناخ، سيؤدي تعديل خلايا الإنسان إلى جعله أكثر قدرة على مواجهة الأمراض الفتاكة، لكننا في الحالتين نبتعد عن الطبيعة ونفتح الباب لمغامرات غير مأمونة العواقب قد تؤدي لكوارث لا يمكن إصلاحها. ماذا سيحدث مثلاً للأبناء والأحفاد المولودين لأب أو أم عدلت خلاياها، أو اعتمد كل حياته شرائح إلكترونية لتعزيز بعض وظائفه الجسدية؟ يقر صاحب الكتاب بأهمية هذه التطورات، وفائدتها للإنسان، لكنه يسعى لتقديم طرح بديل عن النزعة الليبرالية القصوى للتيار الترانس-إنساني، يقترح إخضاع كل التقنيات الجديدة لمبادئ إيتيقية أربعة؛ هي: أولاً: الموازنة بين المنافع والمخاطر، ثانياً: الحكم الأخلاقي على المخاطر بالقبول أو الرفض، ثالثاً: مراعاة الأهداف المتصلة باستعمال الوسائل الجديدة، رابعاً: مراعاة العلاقة بالحياة.

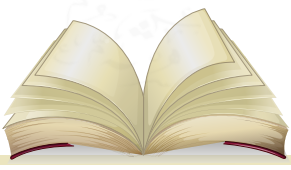
لنطبق هذه المبادئ مثلاً على تقنية تعديل الخلايا: بالنسبة للكاتب، يكون مسموحاً القيام بهذا التعديل لمعالجة أمراض خطيرة مثل السرطان وألزهايمر وباركينسون، لكن لا يجوز استعمالها لتغيير لون العينين لدى الجنين. ثم إن الحالة الأولى الجائزة ينبغي أن تخضع أيضاً لعدة شروط؛ منها: التأكد من مخاطرها المحتملة، والتأكد من وعي المريض بهذه المخاطر ومن قدرته على اتخاذ قرار بهذا الشأن، وتعديل الخلايا الشخصية دون الخلايا التوليدية كي لا تنتقل المخاطر إلى الورثة... إلخ. ويدعو الكاتب لفتح نقاشات عميقة في الموضوع، لتمهيد الطريق إلى تشريعات جديدة تناسب التطورات المذهلة، ويحذر من حالة الفراغ التشريعي القائمة الآن، والتي ستمكن البعض من إجراء تجارب خطيرة على مستقبل الإنسان. وهو لا يكتفي بوضع مقترحات إيتيقية، لكنه يرى أن كتابه محاولة في تقديم

منه على نقاش علمي للتيار الترانس-إنساني. ولكن ما معنى هذا التيار؟

وفي الواقع، تستعمل كلمة ترانس-إنساني بمعنيين مختلفين؛ فالبعض يطلقها على كل الوضعية التي تتصل بالتغيرات التي عرضناها سابقاً، وهذا ما نجده لدى الفيلسوف الفرنسي ووزير التربية السابق لوك فيري في كتابه «الثورة الترانس-إنسانية» (صدر عام ٢٠١٦)، والبعض الآخر يميز بين هذه الثورة في جانبها العلمي والتقني، وبين تيار فكري وفلسفي ارتبط بها وحولها، وجهات أخرى ليس مسلماً بفائدتها وأخلاقيتها، وهذا هو الاستعمال الذي يذهب إليه صاحب هذا الكتاب، وهو يميز بين أهمية هذه الثورة وبين «الترانس-إنسانية» التي يعرفها بأنها مجرد أيديولوجيا خاضعة للنقد.

كي نفهم أهمية النقاش، يمكن أن ننطلق مثلاً من الوضعية التالية: ثمة أناس يخضعون لعمليات زرع قلب اصطناعي؛ لأن القلب الطبيعي لم يعد قادراً على أداء وظيفته، لكن ماذا لو أن رياضياً أصيب بقصور في أداء القلب أصبح يمنعه من الرياضة دون أن يمثل خطراً على حياته، هل يمكن أن يخضع إلى هكذا عملية جراحية؟ كل القوانين تمنع ذلك اليوم؛ لأن مثل هذه العملية لا تعتبر طبية بل تحسينية أو «تعزيزية». تيار الترانس-إنسانية يرى أن الثورة البيوتقنية الحديثة تفرض رفع هذه القيود ويقول أصحابه: إذا ما استعملت الأعضاء الاصطناعية للإنسان لجبر الاضرار، فلماذا لا تستعمل لاستبدال ما يراه الإنسان قاصراً من أعضائه يحول بينه وبين أداء ما يريد من أعمال؟ ولماذا لا يتحول زرع الأعضاء من نشاط مداواة - كما هو حالياً - إلى نشاط «تعزيز»، على غرار عمليات التجميل التي كانت مخصصة سابقاً للمصابين في حوادث الطرقات أو الحروق، وأصبحت اليوم مطلب نجوم الفن والجمال لتحسين هياكلهم؟ ويذهب بعضهم أكثر من ذلك؛ فيطالب بتوفير أعضاء تعويض اصطناعية تباع مثل الأدوية، ويرون أن الإنسان سيصبح قادراً على العيش مدة أطول بكثير عندما تصل هذه الثورة إلى مداها الأقصى، ويمكن أن نصل إلى وضع يختفي معه الموت من الأصل. هكذا تعد الثورة العلمية بنشأة ما تدعوه «الإنسان المعزز» (اقتراح هذه الكلمة لترجمة المرادف الإنجليزي: (improved) أو الفرنسي (augmenté)، وهي كلمة محورية في هذا الموضوع).

الواقع أن الطب قد تقدم منذ سنوات فيما يدعى بالوقاية الجينية، وأصبح ممكناً اليوم القيام ببعض العمليات على الجنين في بطن أمه، وسيصبح متاحاً في القريب تحليل الجنين وتخليصه من الأمراض الخطيرة قبل ولادته، وسيطرح تطور هذه التقنيات مشكلات عملية، من نوع هل يجوز تعديل جيناته ليولد أقوى؟ أو تغيير لون عينيه؟ أو تعديل جيناته دون أن تكون مصابة، ولكن على سبيل الاحتياط؟ هل يمكن زرع شريحة إلكترونية في جسده تمكن من رصد ما يتعرض إليه من أمراض فتاكة في حياته؟ كل هذه الأمور أصبحت ممكنة اليوم من الناحية العلمية البحتة، لكنها تثير جدلاً أخلاقياً وقانونياً. يمكن أن نشبه ذلك بالتعديل الزراعي (□□□) الذي



# ”دراسة نقدية حول تيار الوسطية الإسلامية المعاصرة“.. لدينج جون

## لينج لي وانج \*

دينج جون.. أستاذ في دار دراسات الشرق الأوسط بجامعة الدراسات الأجنبية بمدينة شانجهاي، ومشرف طلاب الدكتوراه، عضو بندوق الدراسات الدينية الصينية، وندوة دراسات الشرق الأوسط الصينية، ومركز البحث لمنتدى التعاون الصيني العربي. وأستاذ وباحث لدراسة الثقافة العربية الإسلامية وقضايا الشرق الأوسط من حيث السياسات والأمم والأديان؛ ومن مؤلفاته المنشورة: «جولة في الثقافة الإسلامية»، و«خلاصة تاريخ تعليم اللغة العربية في الصين»، و«حول الثقافة الإسلامية»، و«منهج الثقافة العربية» الخ.

أما الوسطية الإسلامية، فهي تيار فكري تتفاهم آثاره في العالم العربي الإسلامي في العهد المعاصر يوماً بعد يوم.. وهو يتمسك بالعادات الثقافية المشتمة على السلام والتوسط والتسامح والتناغم من الحضارة الإسلامية؛ سعياً لنشر فكر السلام وروح الحب، معارضا كل ألوان التطرف والإرهاب، ومحترماً تعددية الحضارات البشرية، وداعياً للحوار والتبادل بين مختلف الحضارات على نحو مبادر، ورامياً لتحقيق تعايش المجتمعات الإنسانية وتناغمها وسلام العالم الدائم.

والأسرة والمجتمع، والحق والواجب... وغيرها؛ سعياً للتناغم بين الإنسان والله، والإنسان وغيره، والإنسان والطبيعة، ويمتد هذا الفكر إلى مستويات الإيمان والشريعة والأركان والأخلاق والحياة. كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم والحديث الشريف؛ مما يطلب من المسلم أن يتمسك بمبدأ الوسط منعا للتطرف وضيق العقل، وأن يجتهد ليكون قدوة يحب السلام ويبشر بالحب ويلتزم الوسط ويصنع التناغم. قال الله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (آل عمران: 143)، فكلمة الوسط في هذه الآية لها معان متعددة جوهرها العدل أو العدالة، وجاء في الحديث الشريف تفسير لها بأنها تعني العدل، ويلاحظ أن تسمية «أمة وسط» تأكيد على اعتبار الوسط مفهوم نواة للمسلمين؛ لذلك ليس مبدأ الوسط مبدأ يدعو الإسلام للسلام والتناغم فقط، بل مفهوم أساسي يلتزمه المسلمون ويكمن في ديانة الإسلام وجوانب تطبيقه. وقال الله: «فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا» (فاطر: 43)؛ فالْبَشْرُ بِكُوفِهِمْ جزءا مهما من وحدة الكون، عليهم أن يدركوا -على قدر استطاعتهم- سنة الله، ويلتزموا سواء في الحياة المعنوية أو في الحياة المادية دون مخالفة. وإلا سيحدث فقر الموازنة وتسقط الكوارث والمصائب حتى الهلاك. قال الله: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» (الرحمن: 5-9)، وفي الحديث الشريف ما يثبت التزام المسلمين لمبدأ الوسط، ويشير إلى الأضرار الشديدة الناجمة عن الانحراف عن الوسط نحو التطرف ويمنع المسلمين عن الإفراط والتطرف.

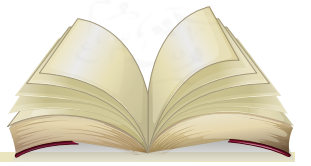
وفي الفصل الثاني، عرض الكاتب الأغراض الأساسية للوسطية الإسلامية المعاصرة وهي تحتوي على ما يلي: دينياً: دعوة إلى الوسط والسماحة دون التطرف وضيق

ويتمثل في الدور الإيجابي الذي تؤديه في الحفاظ على تعددية الثقافات البشرية ودفع الحوار بين مختلف الحضارات على خلفية الوضع السياسي الدولي المتعدد الأطراف، فضلا عن إيجاد مجال علمي جديد في دراسات الإسلام والثقافة الإسلامية العربية الجارية في الصين، بغية تعميق البحث في هذا المجال؛ بما يمهّد طريقاً أساسياً لإنشاء فرع علمي. والنتائج التي توصل إليها هذا الكتاب كالتالي: من منظور تاريخ انتشار الإسلام، وعقائده، وحضارته، ونموه، تكون الوسطية الإسلامية ذات أساس فلسفي متين وعادة تقليدية قديمة، ومن منظور واقع العالم الإسلامي العربي تكون انعكاساً لما تأمله شعوب الدول الإسلامية العربية من إصلاح وتنمية. ومن جهة العلاقات والسياسات الدولية، تكون قوة إيجابية تدفع الحوار الحضاري وتحافظ على سلام العالم. ومن ناحية شؤون الصين الخارجية والداخلية، تكون دراستها تساعد على التبادل الودي بين الصين والدول الإسلامية العربية، وعلى بناء مجتمعات متناغمة مبنية على اتحاد القوميات وتعايش الأديان في الصين. ومن زاوية البحث العلمي وبناء الفروع العلمية، تكون دراستها تسهم في إنشاء نظام الدراسات الإسلامية والعربية ودراسات الشرق الأوسط ذي الخصائص الصينية. إذن؛ الوسطية الإسلامية تجمع بين التاريخية والفلسفية والنظرية والواقعية والعصرية والعالمية والعلمية، وهي تيار فكري مهم علينا أن نأخذه مأخذ الاهتمام والمتابعة والبحث.

ويتكون الكتاب من مقدمة وستة فصول وملحق.. أكد الكاتب في الفصل الأول على أن القرآن الكريم والحديث الشريف هما الأساس الفلسفي والأصل الفكري للوسطية الإسلامية؛ إذ يكمن فيهما فكر الوسط الذي يعنى بالتوسط والموازنة وعدم التحيز بين الحاضرة والآخرة، والقدر والحرية، والسماوية والعقلية، والروحانية والمادية، والإنسانية والعلمية، والفردية والجماعية،

جسدت نشأة هذا التيار جهود العالم العربي الإسلامي في تحقيق الإصلاح والتنمية والاستقلال والتقوية؛ من خلال إعادة التفكير في ثقافته وبنائها. كما أن الوسطية الإسلامية المعاصرة انعكاس لحركة النهضة الإسلامية ولاتجاه جديد لتنمية الحضارة الإسلامية في مقابلة القرن الجديد. ومع أنها لم تتجاوز أساساً حقل النهضة الإسلامية المعاصرة، لكنها تتميز عن فكر اتحاد الإسلام الجديد، ونهضة الإسلام الشعبية والأصولية؛ إذ تبدو الوسطية أقرب إلى النهضة الشعبية بعيدة عن صبغة الرسمية التي يتحلى بها اتحاد الإسلام الجديد، رغم أنها تختلف عنه؛ حيث لا يخلو الذين يدعون إلى الوسطية من الساسة والقادة، إضافة إلى أنها تولي التجديد الفكري وإعادة التنظير عناية أكثر من الأصولية التي ترفع علم السياسة عملاً لتحقيق أهداف سياسية. ومن هذه الحيثية، تكون الوسطية جامعة الشعبية والعلمية، ومعنية بالبناء الفكري والإبداع الثقافي، ولا ترفض التعاون مع الحكومات ولا تبعد عنها السياسة والواقع. ويلاحظ أن الوسطية الإسلامية المعاصرة تتجه إلى جمع الأشكال الثلاثة المذكورة سابقاً محاولة تنسيق مواقف الأطراف لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية على نحو عقل، ومن موقف أल्प، رامية إلى التماس طريق تنموي يناسب العالم العربي الإسلامي نفسه، وإعادة بناء مفاهيم قيمة جوهرية. ولقد تجلت إيجابياتها، وأصبحت قضية حديثة جديرة بالمتابعة والترصد والبحث في أغازها الفكرية وتطورها الآتي.

يرمي هذا الكتاب إلى كشف حقيقة الوسطية الإسلامية، وتقييم دورها الواقعي الذي تلعبه في مواجهة العالم العربي الإسلامي للتحديات الخارجية والداخلية، ومسير تعدد الأطراف في الوضع السياسي الدولي. وهذا الدور يتوقف -على نحو كبير- على شأنها العملي الذي يعمل في مسير إصلاح العالم العربي الإسلامي وتنميته،



وواجبا اجتماعيا مهما أن «يطالب بالعدل نيابة عن الطبيعة»، وأن «يتقي الطبيعة ويقلد الآباء». ولا تقل في الثقافة الصينية الطبيعة التي يعيش عليها الإنسان عن الإنسان أهمية، بل تتحلى بالقدسية؛ إذ يتجلى المصير المكتوب في كل الألوان والأشكال من الكائنات، وتكمن فيها العقلية التي بها تتفاعل مع الإنسان؛ لأن الطبيعة ذات مزاج وقلب تزعل وتفرح مثل الإنسان، ومن هذه الحيثية يكون الإنسان والطبيعة وحدة متحدة، واتحاد الطبيعة والإنسان بمثابة اتحاد ناموس المجتمعات البشرية والناموس الطبيعي، الذي أجمع عليه الكونفوشيوسيون؛ سواء قدماءهم أو محدثيهم رغم اختلاف تفسيراتهم له، اتفقوا على اتحاد الطبيعة والإنسان واتحاد روح الطبيعة وروح البشرية، واعتبروا هذا الاتحاد والتناغم المثال الأعلى الذي يستعصي على الرجل العادي أن يصل إلى فلكه، والذي يمثل حكمة المذهب الكونفوشيوسي بل حكمة الثقافة الصينية.

ثم ذكر في الفصل الخامس أن الوسطية الإسلامية ذات رأي مشترك واسع النطاق، وصارت تيارا رئيسيا في العالم العربي الإسلامي يوما بعد يوم، وهي نظرة حاسمة أبدعت لصالح سعي العالم العربي الإسلامي إلى الإصلاح والتنمية في المستقبل. وشهدت تطورا كبيرا خاصة بعد حادثة 11 سبتمبر وهي تمثل نية أغلب الشعب، ومما يزامن أن الصين بعد دخول القرن الجديد طرحت فكر تكوين مجتمع وعالم متناغمين، مشددة على أن الصين تسعى لبناء مجتمع اشتراكي متناسق، وبناء عالم ذي سلام دائم ونعيم مشترك. يتوافق الفكران في عدة جوانب؛ بما فيها: العناية بتعددية الحضارات، والتأكيد على الحوار الثقافى، والعمل لإقامة نظام دولي جديد بالعدل والعقل، ومعارضة الهيمنة والعنف وكل أشكال الإرهاب؛ حفاظا على عدل المجتمعات وسلام العالم، والسير على طريق تنموي مستديم في سبيل التناغم والتناسق والنعيم المشترك. ومن الملحوظ أن فكر الوسط والتناغم الذي ينبع من الثقافات الشرقية يحوز دورا عمليا في مواجهة سلسلة من الأزمات الخطرة التي تقابل المجتمعات البشرية وفي تسويتها. وهذا الدور العملي يأتي من أوجه: الأول يساعد على إصلاح العالم العربي الإسلامي وتنميته؛ والثاني يؤدي لاستقرار الإقليم وسلام العالم؛ والثالث يكون موردا معنويا لتكوين أخلاق المجتمعات العالمية.

- الكتاب: «دراسة نقدية حول تيار الوسطية الإسلامية المعاصرة».
- المؤلف: دينج جون.
- الناشر: ناشرالعلوم الاجتماعية الصيني، الطبعة الأولى، 2016م، باللغة الصينية.
- عدد الصفحات: 306 صفحات.

\* باحثة ومستعربة صينية



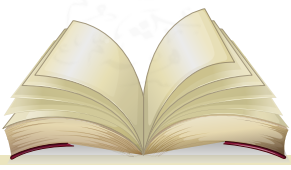
مبدأ الوسط دون الانحراف؛ سعيا للتوافق الشامل بين الجسم والعقل، والإنسان وغيره، والإنسان والطبيعة، والإنسان والخالق؛ حتى يأخذ كل من الله والبشر وشئ الكائنات حقه لا يتضارب بعضها مع البعض. أما الثقافة الصينية القائمة على محور الثقافة الكونفوشيوسية، فتضم مفهوم الانسجام الذي لا يقل عن الثقافة الإسلامية عمقا متجسدا في مستويات ما بين الجسم والعقل، والإنسان وغيره، والإنسان والطبيعة... وغيرها. ومن حيث الانسجام بين الجسم والعقل، ظلت الثقافة الصينية منذ نشأتها تعنى به إذ تشدد على «تمرين الجسم وتهذيب الأدب»، وتطالب بتربية مزاج «ذي خلق القديس وسلطة الملك»؛ من خلال ترقية الذات وتعزيز العائلة وإدارة الدولة ورعاية طموحات رعية الدولة بما يحقق التوافق بين الجسم والعقل إلى خير حد. ومن حيث الانسجام بين الإنسان وغيره، عادة ما تهتم الثقافة الصينية بهذه النقطة، مؤكدة على تنظيم وإقامة علاقة التوافق بين الأب والابن، والزوج والزوجة، وبين الإخوة، وبين الأقارب، وبين الأصدقاء، وبين الملك والولاة... وغيرها من كل الجوانب العائلية والاجتماعية بواسطة سلسلة من المبادئ الأخلاقية والفرائض الأدبية؛ بما فيها: الرحمة، والولاء، والأدب، والحكمة، والصدق، والأناسة، والطيبة، والاحترام، والاقتصاد، والطاعة، والأمانة، والبر، والسماحة، والأخوة، والإخلاص. معتقدة أن التمسك بمبدأ الوسط يضمن التوافق بين الناس في معاملاتهم، الذي يقصد به السيطرة على حد شأن ما أو شيء ما لتسوية أو لتجنب أي تضارب أو تنازع بين الإنسان وغيره، وبين الإنسان والمجتمع من أجل بناء مجتمع ذي أخلاق ونظام. ومن حيث الانسجام بين الإنسان والطبيعة، تؤكد الثقافة الصينية على مكانة الإنسان الأولية، معتبرة أن الإنسان أثنى من الأشياء وأن الرعية أثنى من الراعي، وأن الرعية أساس الدولة، وتضع الإنسان موضع النواة بين السماء والأرض وهو يحمل رسالة قدسية أن «يتفهم الطبيعة ويتغنى بالحياة»

العقل، وإعادة تشغيل الاجتهاد لبناء نظام الشريعة الحديث، وتوثيق البناء الأخلاقي، والعناية بالسمو والإنسانية والاتحاد الديني دون التعصبية. وسياسيا: معارضة الإرهاب والهيمنة حفاظا على سلام العالم؛ سعيا لإيجاد قانون دولي ذي عدل وعقل، ومبادرة إلى التعاون الدولي لمواجهة العولمة على نحو إيجابي، وتقدير روح المشاورة الديمقراطية عملا لإصلاح النظام السياسي. وثقافيا: تأييد الحوار الثقافى ومعارضة الصراع الحضاري واحترام تعددية الثقافات؛ عملا لتكوين الأخلاق العالمية، وترسيخ العادات الثقافية وممارسة الإبداع الثقافى لبناء سبيل أساسي للحضارة الإسلامية المعاصرة. واجتماعيا: احترام حقوق النساء والعناية بالأسر وأحوال الأقليات المسلمة واحترام مصالح الأقليات من غير المسلمين؛ عملا لعدل المجتمعات، وإنشاء مجتمع عادل وديمقراطي قائم على التعاون والتحاب والتناغم والتعايش، وتعزيز التعاون الاقتصادي داخل العالم الإسلامي والتماس نمط تنموي مناسب لنفسه.

وفي الفصل الثالث، ذكر الكاتب أعلام الوسطية الإسلامية في عصرنا اليوم. ومجمل ما نادوا به أن الوسطية تدعو للجمع بين الإيمان والعلم، وبين الوحي والعقل، وبين الأخروية والدنيوية، وبين الماضية والمستقبلية، وإلى امتصاص المواضيع الحديثة المفيدة، وترسيخ العادات والتقاليد الصالحة، والالتزام بالثبات في الأهداف والقضايا الشاملة، والمرونة في الوسائل، والملاءمة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، والتيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، وإلى المسلمين بالحكمة وحوار الآخرين بالحسنى، والجمع بين الولاء للمؤمنين، والتسامح مع المخالفين، واتخاذ منهج التدرج الحكيم في الدعوة والتعليم والإفتاء والتغيير، وإجراء الإبداع وإحياء فريضة الاجتهاد بدون الإفراط والتفريط والغلو والتقصير، وإلى الحرص على البناء لا الهدم، وعلى الجمع لا التفريق، وعلى القرب لا المبالغة.

ثم خصص الكاتب الفصل الرابع للوسطية الإسلامية في رؤية الثقافة الصينية.. قائلا: إن الثقافتين الإسلامية والصينية كليهما من الثقافات الشرقية، وتوجد بينهما عدة جوانب خاصة في مجال الأرواح الإنسانية التي تضم فكر الوسط والتناغم. إذ تدعو الثقافة الصينية منذ نشأتها لعقيدتي «تمثيل الطبيعة بالأخلاق»، و«اتقاء الطبيعة وتقليد الأجداد». مشددة على التمسك بالوسطية دون الانحراف أو التحيز، وبمبادئ الأخلاق المتمثلة في «الطيبة والاحترام والاقتصاد والطاعة»؛ سعيا لبلوغ فلك «اتحاد الإنسان والطبيعة» و«التناغم في الاختلاف». يكمن في الثقافة الإسلامية اعتقاد بأن الكون وحدة منسجمة تكن ناموس الوسط والتوازن والتناسق والانسجام المتمثل في دوران الكواكب وتعاقب الليل والنهار وسلامة الجسم والعقل... وغيرها؛ سواء في الكبار أو الصغائر. وإذا الطبيعة فقدت الانسجام حدثت الكوارث، وإذا المجتمع البشري فقد الانسجام مني بالمصائب، وإذا الجسم فقد الانسجام أصيب بأمراض. وبكلمة عامة، مبدأ الانسجام في الثقافة الإسلامية هو





# "صعود النمو الأمريكي وسقوطه" ..

## لروبرت جوردون

محمد السالمي \*

في القرن الذي أعقب الحرب الأهلية، أدت الثورة الاقتصادية إلى تحسُّن مستوى معيشة الأمريكي بطرق لم يكن من الممكن تصورها من قبل؛ الإضاءة الكهربائية، والسيارات، والسفر الجوي، والتليفزيون، وتحولات الأسر وأماكن العمل... وغيرها. لكن؛ هل سيستمر هذا النمو دون توقف؟ يأتي روبرت جوردون في كتابه «صعود النمو الأمريكي وسقوطه»، ليقدم سردا تاريخيا وتحليلا اقتصاديا لتطور النظام المعيشي للأمريكي. ما يثير الاهتمام هو تحدي الافتراضات التقليدية حول مستقبل النمو الاقتصادي الأمريكي، والفاؤل بأن النمو الاقتصادي سيستمر بلا هوادة، وثبت أن حجم الابتكارات التي غيرت الحياة بين عامي ١٨٧٠ و١٩٧٠ لا يمكن أن يتكرر. ويؤكد جوردون أن نمو إنتاجية البلاد سيتعرض لمزيد من التعثر؛ بسبب ارتفاع معدلات عدم المساواة، وركود التعليم، وشيخوخة السكان، وارتفاع ديون طلاب الجامعات، والحكومة الاتحادية، وأنه يجب علينا إيجاد حلول جديدة. فروبرت جوردون هو أستاذ في العلوم الاجتماعية في جامعة نورث وسترن. وتشمل كتبه نمو الإنتاجية والتضخم والبطالة والاقتصاد الكلي. كما تم إدراج جوردون في قائمة بلومبرج ٢٠١٦ من المفكرين الأكثر تأثيرا في الولايات المتحدة.

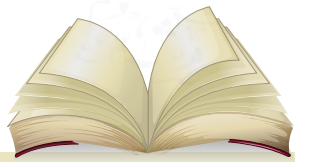
إذا كان لديها كوب من السكر بدلا من زيارتها شخصيا، أو الاستماع إلى الموسيقى على الراديو. كما جلب الراديو الملايين من الأمريكيين إلى المحادثة الوطنية؛ سواء كان ذلك لسماع واحدة من دردشات فرانكلين روزفلت، أو مشاهدة لعبة البيسبول. ويناقش الفصل السابع التحسينات في مجال الصحة والوفيات في نفس الفترة، والتي كانت -وفقا لجوردون- غير مسبوقه. وبعد تلخيصها، يتحول إلى أسباب؛ من بينها: تحسين الصرف الصحي في المناطق الحضرية، والمياه النظيفة، والحليب غير الملوث. كما يسلط الكاتب الضوء على التحسينات في المعرفة الطبية، لا سيما نشر وفهم نظرية الجرثومية للمرض. أما الفصل الثامن، فيدرس التغييرات في نوعية العمل من ١٨٧٠ إلى ١٩٤٠. وفقا لجوردون، وأصبح العمل أقل خطورة، وأكثر إثارة للاهتمام، وأكثر جدوى من حيث الأجور الحقيقية. الأهم من ذلك، فإن ساعات العمل أصبحت أقل، والذي أتاح بعض الوقت للترفيه. وكان هناك انخفاض ملحوظ في عمالة الأطفال؛ حيث أنفق الأطفال وقتا أطول في المدرسة، لا سيما لدى كبار السن في المدارس الثانوية. كما تم التطرق لمصطلح «الثورة الهادئة» والتي تعني انخراط المرأة المتزوجة في العمل الانتاجي، والتي ارتفعت بشكل كبير بعد الحرب العالمية الثانية.

ويأتي الكاتب في الفصل التاسع ليناقد مسألة الائتمان والتأمين بالصنفين الخاص والاجتماعي. ومن المؤكد أن القدرة على تحسين الاستهلاك السلس، وتأمين الكارثة، تدخل أيضا في نطاق رفع مستويات المعيشة. وفي البداية، كان تحول الأسر من المناطق الريفية إلى

ويأتي جوردون في الفصل الرابع ليقدم دراسات حول نوعية السكن. وكما هي الحال مع السلع الاستهلاكية الأخرى، تحسنت المساكن أيضا بشكل كبير من حيث الجودة من العام ١٨٧٠ إلى عام ١٩٤٠. ويؤكد جوردون أن الكثير من المساكن الزراعية كانت أقل جودة، في حين أن المساكن الحضرية الجديدة كانت عادة أكبر وأفضل. فالسباكة الداخلية، والأجهزة المنزلية، والكهرباء، عززت بشكل كبير نوعية الحياة. كما تطرق الكاتب حول تطور نظام التملك والإيجار. ويعرض الفصل الخامس تفاصيل التحسينات التي طرأت على النقل بين عامي ١٨٧٠ و١٩٤٠. الأول: هو تحسن النقل في الربط بين المدن والمناطق عبر السكك الحديدية. ويظهر ذلك أساسا من خلال التحسينات في كثافة الخطوط وفي سرعة النقل. والثاني: هو تحسن نظام النقل داخل المدينة من خلال اعتماد نظام الترام الكهربائي. والثالث: هو محرك الاحتراق الداخلي واستخدامه في السيارات والحافلات.. ويبرز جوردون بشكل خاص التحسينات في جودة السيارات، مشيرا إلى أن السيارة لا تنعكس في مؤشرات الأسعار القياسية حتى منتصف الكساد العظيم.

ويتناول الفصل السادس تفاصيل التقدم في الاتصالات من العام ١٨٧٠ إلى العام ١٩٤٠. ووفقا للمعايير الحالية، فإن الابتكارات -مثل التليغراف، والهاتف، والفونوغراف، والإذاعة- قد لا تبدو كبيرة، ولكن من وجهة نظر الأسرة المعيشية في العام ١٨٧٠، تمكن الأمريكيون من الحد بشكل كبير من عزلتهم. وكما يشير جوردون، يمكن للمرء أن يتصل بجارة لمعرفة ما

ويأتي الكتاب في ثلاثة محاور؛ المحور الأول بعنوان «الابتكارات العظيمة تخلق ثورة في داخل المنزل وخارجه (١٩٤٠-١٩٨٧)». وينقسم إلى تسعة فصول؛ يقدم الكاتب في الفصل الأول لمحة عامة عن مستوى معيشة الأسر الأمريكية منذ العام ١٨٧٠ وحتى الوقت الحاضر من منظور كمي ونوعي. ويركز روبرت على أن النقطة الأساسية للكتاب هي أن التباطؤ في النمو بعد عام ١٩٧٠ كان لا مفر منه؛ لأن ثورة التكنولوجيا أتت مرة واحدة ولم تتجدد؛ بحيث لم تسهم بشكل باهر في دعم النمو على حسب وصف الكاتب. أما في الفصل الثاني، فيرسم روبرت صورة قاتمة لمستوى المعيشة في كاليفورنيا في السبعينيات من القرن التاسع عشر؛ حيث كان النظام الغذائي سيئا، كما كانت الملابس المنزلية الصنع غير ملائمة، وكان النقل يعتمد أساسا على الحصان، والتي ولدت كميات هائلة من النفايات. عاش الأميركيون في المناطق الريفية لفترة طويلة من حياتهم إلى حد كبير بمعزل عن العالم الأوسع، ويبدو أن هذه ظروف أخذة في التراجع، مقارنة بعامنا الحالي من خلال النظر في تقديرات الناتج القومي الإجمالي الحقيقي. ويواصل في الفصل الثالث التركيز على التغييرات في استهلاك الأغذية والملابس. ويؤكد جوردون أنه لم يكن هناك تغيير كبير في الجودة الأساسية، ولكن بحلول العشرينيات، كان المستهلكون يدفعون أسعارا أقل للأغذية -بعد أن انتقلوا إلى مصادر أقل سعرا من خلال الذهاب لسلسلة متاجر بدلا من المحلات الصغيرة- وكانت معظم الملابس التي يتم شراؤها تنتج وتخزن في المصنع أو تستورد من الخارج.



ومرة أخرى، فإن الكاتب يؤكد على تحسن ظروف العمل بسبب التحول نحو قطاع الخدمات والوظائف «الداخلية»؛ وزيادة مشاركة النساء المتزوجات في القوى العاملة؛ وارتفاع تحصيلهن العلمي، وثورة التقاعد.

ليأتي الجزء الثالث بعنوان «مصادر النمو السريع والبطيء»، ويبدأ بالفصل السادس عشر، والذي يركز على النصف الأول من القرن العشرين، الذي شهد قفزة ملحوظة في نمو الإنتاجية الكلية للعامل، وارتفاع مستوى المعيشة. ينظر جوردون في عدة تفسيرات، ورفض اثنين من أبرزها التعليم والتحضر. ويجادل بأن سرعة النمو في الإنتاجية الكلية يمكن أن تعزى إلى الانتشار النهائي للاختراعات الرئيسية للثورة الصناعية الثانية، مثل الكهرباء إلى الصفحة الجديدة، وإلى الحرب العالمية الثانية. ويعالج الفصلان السابع والثامن عشر الأداء المخيب للأمال لنمو الإنتاجية الكلية لعوامل الإنتاج ومستوى المعيشة في العقود القليلة الماضية من التاريخ الاقتصادي الأمريكي. وعلى الرغم من الإنجازات الملحوظة في مجال العلم والتكنولوجيا، كان الأثر على متوسط مستويات المعيشة ضئيلاً مقارنة بالفترة ١٩٢٠-١٩٧٠. وقد زادت نسبة عدم المساواة بشكل مضطرب منذ العام ١٩٧٠، والذي يمكن ربطه جزئياً بالتغيير التقني المتحيز للمهارات، كما حدث في حالة الركود الكبير. في حين أن جوردون ما بين المتفائل والمتشائم حول نمو الاقتصاد الأمريكي؛ حيث يتوقع أن متوسط نمو إنتاجية العمل خلال الفترة ٢٠١٥-٢٠٤٠ هو ١,٢ في المئة سنوياً، وهو أقل من الثلث من معدل النمو من ١٩٧٠ إلى ٢٠١٤.

قصة مستوى معيشتنا هي جزء حيوي من التاريخ، وتمت صياغتها بشكل جيد في هذا الكتاب الرائع. يقدم جوردون تفاصيل ملونة وإحصاءات مذهلة حول كيفية تغير الطريقة التي يعيش بها الأمريكي، ويسأل عما إذا كنا سنعيش بسعادة بعد أي وقت مضى. على الرغم من الحجم الكبير لعدد الصفحات، إلا أن الكتاب لاقى استحسان النقاد والقراء بشكل عام. وقد تم تصنيف الكتاب من أفضل الكتب الاقتصادية للعام ٢٠١٦ حسب الفايانانشيال تايمز وبلومبيرج.

- الكتاب: صعود النمو الأمريكي وسقوطه

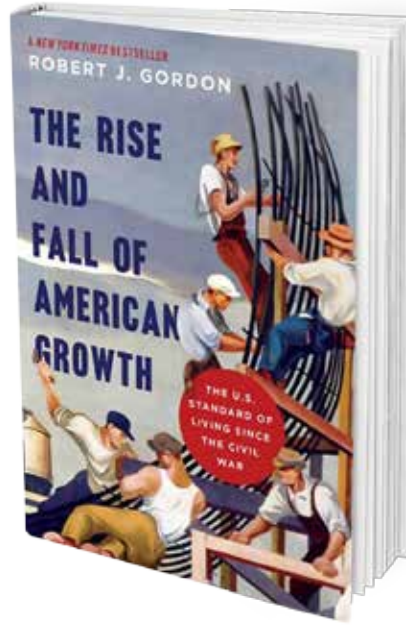
- المؤلف: روبرت جوردون

- الناشر: "Princeton University Press"

٢٠١٦م، بالإنجليزية.

- عدد الصفحات: ٧٨٤ صفحة.

\* كاتب عُمانى



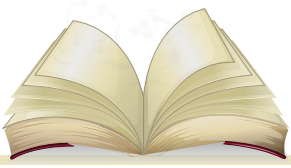
تحسينات حادة في مختلف منصات الاستماع للموسيقى، ومع التقدم الكبير في تكنولوجيا التسجيل والاستقبال، مهد الطريق إلى تدفق الموسيقى لليوتيوب وتحسن نظام الترفيه. فالأمريكان اليوم متصلون على الفور تقريباً بكل جزء من العالم، وهو مستوى من الاتصالات لا يمكن تصوره قبل قرن. يوجز الفصل الثالث عشر بشكل مفاغج حول تاريخ الكمبيوتر الحديث. ولا توجد طريقة لإخبار هذا التاريخ دون التأكيد على مدى التحسينات التي لم يسبق لها مثيل، بدءاً من أول حواسيب ما بعد الحرب حتى أجهزة الكمبيوتر المحمولة والحواسيب الفائقة اليوم. ومن المفهوم أن قانون مور يأخذ مركز الصدارة، يليه الإنترنت والتجارة الإلكترونية.

ويواصل الفصل الرابع عشر قصة التحسينات الصحية حتى يومنا هذا. وكما يعلم الجميع، تغير نظام الرعاية الصحية في الولايات المتحدة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية؛ من حيث تقديم الخدمات، والتنظيم، وخطط الدفع. وقد أحرز تقدماً كبيراً في رعاية القلب والأوعية الدموية وعلاج الأمراض المعدية من خلال استخدام المضادات الحيوية. وهناك أيضاً أوجه تقدم في علاج السرطان، تحقق معظمها بحلول السبعينيات. وقد تحقق معظم الفوائد أيضاً من خلال نشر الصحة العامة وتوسيع نطاق المعرفة الصحية لدى عامة الجمهور مثل الآثار الضارة للتدخين. ومنذ العام ١٩٧٠، أصبح نظام الرعاية الصحية أكثر كلفة لرأس المال، كما زادت مساهمة الرعاية الصحية في الناتج القومي الإجمالي. ويختتم الفصل بتحليل لنظام «أوباما كير». أما الفصل الخامس عشر، فيتعلق بموضوع القوى العاملة. فجوردون يروي التغييرات الرئيسية في هيكل وتكوين العمل منذ الحرب العالمية الثانية.

المناطق الحضرية يتزامن مع انخفاض الائتمان الاستهلاكي، ولكن في العشرينيات من القرن الماضي كان الائتمان في ازدياد؛ بسبب تزايد عدد الابتكارات التي سبق توثيقها من قبل المؤرخين الاقتصاديين مثل مارثا أولني. وكانت الأسر أيضاً أكثر قدرة على الحصول على التأمين من مختلف الأنواع؛ مثل: الحياة والحرائق والسيارات؛ وعلى وجه الخصوص كثيراً ما تستخدم القروض ضد التأمين على الحياة كمصدر لسداد دفعة على منزل أو سيارة. وأسهمت الحكومة بتوسيع نطاق التأمين الاجتماعي وغيره من البرامج التي أسهمت في الحد من المخاطر النظامية.

أما الجزء الثاني من الكتاب، فيأتي بعنوان: العصر الذهبي والتحذيرات المبكرة من النمو البطيء (٢٠١٥-١٩٤٠). يبدأ الجزء الثاني من الكتاب بالفصل العاشر، الذي يركز على الفترة من ١٩٤٠ إلى الوقت الحاضر. وكما لوحظ، فإن ترتيب الموضوع في الجزء الثاني هو نفسه في الجزء الأول؛ لذلك يركز الفصل العاشر على الغذاء والملبس والمأوى. ويعتبر جوردون أن التغييرات في معايير الجودة من مستوى المعيشة تكون أقل أهمية مما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية. على سبيل المثال: أصبح الغذاء المجد خياراً في كل مكان بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن هذا التغيير هو أقل أهمية بكثير من تحسن ما قبل ١٩٤٠ في إمدادات الحليب. ومن الناحية الكمية، ربما كان أهم تغيير هو انخفاض أسعار الأغذية النسبية التي أدت -على نحو متوقع- إلى زيادة في الكميات المطلوبة. وقد أظهرت البيانات تزايد الأسعار الحرارية في الأغذية، وكذلك السمعة والعديد من المشاكل الصحية ذات الصلة. أما في الفصل الحادي عشر، فيلاحظ جوردون أن السيارات واصلت رفع مستوى الجودة بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة من حيث وسائل الراحة والمسافة. كما تحسنت البنى الأساسية للنقل مع ظهور نظام الطرق السريعة بين الولايات. وفي المقابل، فإن جوردون أقل تفاؤلاً حول النقل الجوي، مدعياً أن نوعية تجربة السفر تدهورت بعد إلغاء القيود التي لم يقابلها انخفاض في الأسعار النسبية. وبالنسبة للإسكان، كانت التغييرات الرئيسية هي الضواحي وما يصاحبها من زيادة في مساحة الأرض. شهدت فترة ما بعد الحرب في وقت مبكر بعض التحسينات الحادة في نوعية الأجهزة المنزلية الأساسية، وإلى حد ما في وقت لاحق، وانتشاراً واسع النطاق لنظام تكييف الهواء والأفران الصغيرة.

ويركز الفصل الثاني عشر على وسائل الإعلام والترفيه بعد عام ١٩٤٠. وقد أعطت بعض أشكال الترفيه القديمة السبيل للتلفزيون، وأعقبت فوائدها الأولية تحسينات مطردة في نوعية الإرسال والاستقبال. وبالمثل، كانت هناك



# "من يخاف من محمد؟" .. لمارسيل هلسبس

سعيد الجريري \*

«من يخاف من محمد؟».. صيغة استفهامية قد توحى -من طرف ما- بأن الذات الخائفة المسؤول عنها -في العنوان- مقصود بها الأوروبيون، في سياق ما يُعرف بـ«الإسلاموفوبيا»-، غير أن مضمون الكتاب يكشف عن منهجية المؤلف في قراءة المصادر الدينية والتاريخية نقدياً، متخذاً إياها مدخلاً لمساءلة الحاضر، ووقائعه، وتحدياته، لتحديد مكان الخوف من الإسلام وعليه في أن معاً، من خلال ما يثيره من تساؤلات، وما يقدمه من إجابات موجهة إلى المتلقي في أوروبا، لاسيما هولندا، حيث يمثل المسلمون -وأغلبهم من أصول تركية ومغربية وآسيوية- نسبة تقدر بـ ٥,٥% من عدد السكان البالغ أكثر من ١٦ مليون نسمة. في مجتمع يقوم على قوانين التنوع والتعايش الأمن بين الثقافات.

ولا يخفي مؤلف الكتاب الهولندي مارسيل هلسبس إعجابه بشخصية النبي الرائعة والأكثر تنوعاً وإثارة للاهتمام. ولعل كتابه هذا يندرج -إلى جانب سابقه «محمد وأصول الإسلام»، ٢٠١٥- في سياق المساهمة الإيجابية المأمولة في الجدل الدائر حول الإسلام، من موقعه غير الطارئ على البحث في المجال الديني؛ فقد أصدر في العام ٢٠٠٦ كتاباً جديلاً تضمن نظرة نقدية للكتاب المقدس، وحظي كتابه عن أصول الإسلام -الذي يترجم حالياً إلى الألمانية- باهتمام المتلقي، باعتباره قراءة جديدة في السيرة النبوية.

الأخرى، فهي حول ما ينبغي أدائه طوال الحياة. ويفرد المؤلف حيزاً للنظر إلى الصيام من زاوية ثقافية، فهو يشير -في نظره- إلى التشبث بالهوية؛ باعتبارها جزءاً من النسيج الثقافي للمجتمعات الإسلامية التي ينحدر منها المسلمون ذوو الأصول غير الأوروبية، في حين أن هناك مسلمين غربيين يجدون الصيام صعباً جداً، ولا يؤدونه، وتعليل ذلك عنده بممارسة النسق الثقافي الإسلامي فاعليته في المجتمع الأوروبي بمعطيات اجتماعية.

(٤)

وعادة ما ينظر إلى المسلم في الغرب باعتباره مهدداً للثقافة الغربية؛ فالشريعة الإسلامية ارتبطت بنظرة نمطية معينة. ولكن في الوقت نفسه، فإن المسلمين ينظرون إلى الغرب باعتباره مهدداً رئيساً للإسلام، ويعتقدون أن هناك تحالفاً غير مقدس، بين الحكومات والمنظمات الغربية وإسرائيل ووسائل الإعلام، بالتعاون مع القيادات العربية الفاسدة، من أجل إضعاف الإسلام. ويشير المؤلف هنا إلى أحد استطلاعات الرأي الذي أفرز أن ٦٠% من المسلمين الأوروبيين (٣٠% فقط في فرنسا)، يرون أن الشريعة أهم من القانون الوطني. مما يمكن عدده مؤشراً على قلق أصولي من تهديد يطال القيم الإسلامية في الغرب. وهذا الشعور لا يسود بين عامة المسلمين فقط، ولكنه يمتد إلى فئة المنادين بإصلاح الخطاب الديني أيضاً، حتى لبيد الوجود الغربي الحالي في المنطقة العربية في نظر الغالبية العظمى من المسلمين استمراراً للهيمنة الغربية؛ فهاجس الخطر الغربي، كما الإسلاموفوبيا، تغذيه أصوليات متوازية تستعيد معارك دينية استقرت في ذمة التاريخ.

كثيراً مما لا يدرك بالترجمة، فثمة آيات تتجلى فيها إشكالية التفسير والتأويل والاختلاف بين علماء الدين والعربية أنفسهم، ناهيك عن عامة المسلمين العرب، ومن باب أولى أن تكون مشكلة جداً إلى درجة الاستغراق على المسلمين غير العرب، أو الأوروبيين العرب من الجيل الذي تتلاشى عربيته، ليغدوا منقادين لمذهب ديني ما، يؤول النص القرآني وفق مرجعيته، ويتم تصديره إلى الغرب باعتباره الإسلام، وليس هو سوى اتجاه واحد من اتجاهات تتنازع التأويل والنفوذ في العالم العربي والإسلامي الغارق في أزماته.

ولعل إشارة المؤلف إلى هذه الإشكالية تثير تساؤلات عن مدى فهم حقائق الدين، مادامت بضاعة المسلم الأعجمي اللغوية مزجاة، ويتلقى التعليمات من فئة معينة تدرك ما لا يدركه، وهو ما يبدو للمؤلف متناقضاً مع مقصدية كون القرآن للبشرية جمعاء، فيما تقوم اللغة حاجزاً بينه وبين فهمه فهماً عميقاً، خاصة وأن ما يجري الحديث عنه -كما يقول- هو «تفسير القرآن» لا الترجمة، مما يضفي على اللغة العربية قداسة ما، تكرر اتباعية التلقي؛ باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الإسلام، بحيث لا يبدو غريباً حينئذ أن يزعم أي متشدد أن لا قيمة للصلاة إن لم تكن بالعربية.

(٣)

هناك نقطة مهمة في الكتاب متعلقة باعتناق الإسلام في الغرب، «أن يكون الشخص مسلماً أمر في غاية البساطة، فليس بالضرورة أن يكون لأبوين مسلمين مثلاً، أو يمارس طقوساً روحانية معينة، فكل ما عليه القيام به أولاً هو نطق الشهادتين باقتناع؛ فهو الركن الأول للإسلام. أما الأركان الأربعة

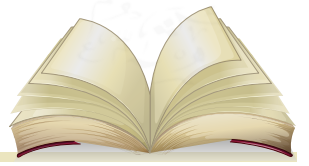
(١)

وينقسم الكتاب إلى عشرين فصلاً؛ اختار المؤلف لعنوان كل منها عتبة دالة من سور القرآن الكريم، كالفاتحة، الشعراء، النجم، الشورى، المائدة، النساء، البلد، النحل، الأنعام، التوبة، المنافقون، المؤمنون والأحزاب، يستجلي من خلالها مداخل أولى إلى الإسلام: القرآن، النبي والشريعة، ثم يتبعها بموضوعات تتصدر الواجهة اليومية في العالم الإسلامي، مثل: الجهاد والإرهاب، الإساءة إلى النبي، الحدود، وضع المرأة، الحجاب، تعدد الزوجات، زواج المتعة وملك اليمين، جرائم الشرف والرق... إلخ؛ فيناقشها موصولة بالتطورات الراهنة، والتصورات المرجعية، وما يصدر من تصريحات مثيرة للجدل. كما يصف أيضاً كيف انضم المفكرون المسلمون في القرن التاسع عشر إلى النضال ضد الغرب أو التغريب، وكيف أدت دعوتهم تلك في نهاية المطاف إلى تعزيز فكر الجهادية، غير غافل في الوقت نفسه عن أدوار المفكرين المستنيرين الذين يسعون إلى تجديد الخطاب الديني.

(٢)

ومما يثيره المؤلف، ويرى أهميته: إشكالية الدين واللغة؛ فلغة القرآن هي العربية؛ مما يعني أن للمسلم العربي درجة أو مزية على غيره من المسلمين الناطقين باللغات الأخرى من جهة، وأنه من جهة أخرى أقرب إلى فهم النص القرآني وتفسيره، من حيث أن القرآن هو الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو تمثيل لكلمة الله الموحاة إلى النبي. ولفهم معنى النص العميق، فإن من المنطقي أن يكون المرء متمكناً من مهارات القراءة بالعربية؛ ذلك أن هناك





من حركة طالبان شرقاً إلى قاعدة جزيرة العرب وشمال إفريقيا، وصولاً إلى داعش ومجاوراتها ذات المرجعية الأصولية الواحدة العابرة للحدود، والتي تم توظيف آلياتها في خضم الأحداث والثورات والحروب التي عصفت بالمنطقة، وكان معظم ضحاياها من العرب والمسلمين تحديداً، ثم ازدادت حدة في أتون الشحن الطائفي السني-الشيوعي. إلا أن المؤلف يبدي تفاؤلاً بأن حالة من التوازن سوف تعقب هذا التوتر والعنف المتبادل، فقد حان الوقت لإعادة تقييم المصادر ونقدها، وإصلاح الخطاب الديني.

(٨)

السمة العامة للكتاب أنه يعبر في مجمله عن رأي نقدي موضوعي إلى حد ما، وفق تصور يقوم على فرضية أن الإسلام يواجه في اللحظة الراهنة أزمة عميقة بعد قرون مجيدة من النجاحات. لذلك؛ يدعو المؤلف إلى إعادة قراءة النص وتفسيره وتأويله؛ بحيث يكون صالحاً لكل زمان ومكان كما هو في الأصل. غير أنه يستدرك بأن من يجرؤ ويريد السير في هذا النهج يجب أن يكون قادراً على أن يتحدث، ويناقش، ويؤلف، ويفكر بحرية، دون الحاجة للأمان على حياته خارج العالم الإسلامي؛ لذلك فهو يزعم أن الإسلام ليس مهدداً من الخارج، ولكن الخطر الأكبر عليه من الداخل، من المسلمين أنفسهم، كلما هيمنت في مجتمعاتهم ذهنية الخوف من التنوع والاختلاف والحوار والقبول بالآخر، بدعوى إضعاف الإيمان والتشكيك في المسار التاريخي للإسلام، وهو تحد مائل لا بد للمسلمين عامةً من مواجهته، بموازاة تحد آخر ينبغي للمسلمين - في هولندا خاصة - أن يصيغوا إجاباته عاجلاً أم آجلاً، في ظل ما لديهم من امتياز العيش بثقافتين، الذي لا يمكنهم، بسهولة، من تحديد الخيارات الواعية أو الصناعات الحرة، بعيداً عن تجاذبات الهوية والازدواج الثقافى. غير أن ما يؤخذ على المؤلف أنه أقام فرضية كتابه على تصور يقلل من خطورة العوامل الخارجية وأهميتها، وهي ماثلة وفاعلة بقوة، وليست بخافية على المتابع العام ناهيك عن باحث مثله في الوقائع والمصائر.

- الكتاب: «من يخاف من محمد؟.. كل ما تريد معرفته عن الإسلام».  
- المؤلف: مارسيل هلسبس.  
- الناشر: مكتبة أنيوم. أمستردام، ٢٠١٦، بالهولندية.  
- عدد الصفحات: ٢١٣ صفحة.

\* كاتب عربي مقيم في هولندا



ما يقدر بنحو مائتي ألف عبد وأمة من مجموع سكانها البالغ ٤ ملايين، أو كماً في السعودية حيث يتم العمل بما يعرف بنظام «الكفيل» إلى الآن، دون أي مراجعة من المراكز الدينية. ويعلل المؤلف هذه الظاهرة بأن عدم وجود نص قطعي يمثل حجة قوية للإبقاء على هذه الممارسة التي لا يفهمها المسلم المعاصر، لا سيما في أوروبا إلا في سياق هاجس التآمر ضد الإسلام.

(٧)

«لا إكراه في الدين».. مبدأ إسلامي يؤكد احترام حرية المعتقد واختياره، وسلمية التعايش بين الأديان والمتدينين، لكن كيف يجري تطويع النصوص لتسويغ عمليات العنف التي تستهدف الآخر المختلف؟ هذه مسألة إشكالية؛ فالجهاد مبدأ مواز أيضاً، لكن هناك اعتقاد بأن من يعلن الجهاد هو الخليفة المجمع عليه، بمعنى أنه لا يكون إلا باستعادة الخلافة. غير أن تلك الحركات تربط الأمر تماماً بفكرة أن الإسلام يتعرض اليوم لتهديد خطير، يقتضي الجهاد. وفي سبيل فهم كيف يمكن أن يحدث، فثمة حاجة - كما يقول - للعودة بضعة قرون إلى الوراء، عندما واجه العثمانيون المد الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين بفكرة العودة إلى أيام المجد الإسلامي، وإحياء الخلافة التي ما لبث أن ألغاه كمال أتاتورك، فووجه بفكر أصولي يرفض التأثيرات الغربية كلها، ويدعو إلى العودة للإسلام الصحيح (أبو الأعلى المودودي، حسن البنا، سيد قطب...)، ومناهضة اتجاه الاشتراكية العربية (مصر وسوريا مثلاً)، وما ترتب عليها من مواجهات قاسية، وتصفيات دموية، أعقبتها موجات جهادية شكلت روافد جديدة لمكافحة النفوذ الغربي في المنطقة، بمرجعية مذهبية محافظة اتسعت خارطتها

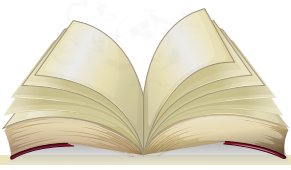
(٥)

ويقف المؤلف إزاء تيارين في العالم الإسلامي متضادين بالضرورة؛ أحدهما تيار الفتوى: شيعية كانت أم سنية، وهو داعم لأنظمة سياسية معينة ومدعوم من قبلها بقوة. أما التيار الآخر، فهو تيار المصلحين والمفكرين الإسلاميين الذين لهم إسهامات جادة، غير أنهم لا يحظون بدعم واسع أو شعبية، وتتسم جهودهم بالنخبوية غالباً، ولا نفوذ لهم يوازي ما تتميز به مؤسسات التيار الأول المهيمنة على تشكيل الوعي، عبر خطاب ديني يكرس الاتباعية وقيم السلفية في المجتمع الإسلامي المعاصر، وفق رؤية للتاريخ هي على العكس من الرؤية الغربية التي ترى أن الفصل بين الكنيسة والدولة شرط أساس للتطور علمياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً؛ إذ تقوم رؤيتهم على الاعتقاد بأن العكس تماماً هو سبيل الخلاص؛ فالعالم الإسلامي لن ينهض إلا عندما يستعيد مجده القديم، ويسود فيه الإيمان، وعندئذ فقط سيولد من جديد، وسيتفوق على الغرب الذي خلخلت العلمنة أسسه الأخلاقية، واستشرت فيه القيم المادية والانحطاط والإباحية والمخدرات.

(٦)

ومن الموضوعات التي يرى أنها جديرة بالمساءلة في سياق الموقف من المرأة: ملك اليمين، والرق في الإسلام والعالم الإسلامي؛ فحقيقة أن للإسلام قيماً أخلاقية علياً، تقتضي أن يكون - من غير المنطقي - التناقض معها، بتبرير الانتهاكات المعاصرة بحق النساء غير المسلمات، خارج السياق التاريخي؛ فمسار تحقيق قيم الإسلام الكبرى تجاه الإنسان، من غاياته أن يفضي إلى إلغاء العبودية لغير الله، سواء للنساء بصيغة ملك اليمين، أم للرجال بصيغة العبيد. الأمر الذي يربك المسلم المستجد، كما يقول، ويدخل أزمته متعددة في وعيه، حينما يجد تضارباً فقهيًا بين من يقول بإمضاء أحكام معينة، وهم المتشددون، ومن يقول بتعطيلها وهم المعتدلون، داعين في الوقت نفسه إلى المقارنة بين الاسترقاق والقتل، في الحروب، وليس بين الاسترقاق والحرية. في حين يشكك أولئك وهؤلاء معاً في عقيدة من يقول بإلغائها انسجاماً مع ما أنجزه الإسلام من قيم حررت الإنسان من عبودية البشر.

ويلاحظ هلسبس على مرجعيات العالم الإسلامي الفقهية في هذا الاتجاه أنها لم تبادر إلى إجراءات إنسانية في هذا السياق، حتى تم تحريم الرق وتجارة العبيد بقرار من الأمم المتحدة عام ١٩٤٨، ثم بدأت ظاهرة الاسترقاق، على أثره، تتلاشى تدريجياً، وإن بقي الملايين في أنحاء العالم يعيشون العبودية، كما في أفغانستان خاصة، وباكستان وبنجلاديش وشمال إفريقيا؛ حيث لا يزال في موريتانيا مثلاً



# المستبعدون .. لآرتور دوموسلافسكي

يوسف شحادة\*

يقدم الصحفي والكاتب البولندي، آرتور دوموسلافسكي، كتابه الجديد «المستبعدون»، بعد مؤلفه الشهير عن سيرة الصحفي والمؤرخ والشاعر ريشارد كابوشينسكي - الملقب بـ «مؤرخ اليبورتاج»، صوراً مختلفة للمسحوقين، والمحرومين المستبعدين، والمهمشين المفلوظين خارج الحياة الإنسانية الكريمة. وقد أصدر كتاباً مهماً أخرى، منها: «المسيح بدون بندقية» (1999)، «عالم ليس للبيع» (2002)، «حُمى أمريكا اللاتينية» (2004)، «أمريكا المتمردة» (2007). يمكن عدّ كتاب «المستبعدون» بانوراً شاملاً تغطي النصف الجنوبي من عالمنا، وصورة جمعية للذين لا صوت لهم، ولا صورة لهم ترسم في وسائل الإعلام العالمية. يأخذنا المؤلف إلى جنوب العمورة راسماً لوحة للبوّس المهيمين في مناطق كثيرة من أمريكا اللاتينية، وإفريقيا، وآسيا، واصفاً أحوال المهمشين الذين يقرون أن ليس لهم «على تخوم العالم المتخّم إلا الهواء ورحمة الله».

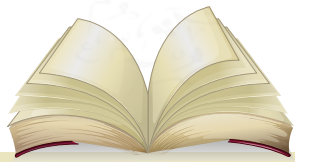
فلسطين المحتلة، بموضوعية كبيرة، عن طريق معاناة هؤلاء البدو الذين يحظر عليهم حتى الماء، ويتعرضون لأبشع صنوف الاضطهاد والتمييز العنصري. في ريبورتاج «البدو في الفخ»، يقول دوموسلافسكي: «إن البدو أكثر الخلق صبراً، وإنهم تعلموا الصبر في الصحراء ومن الصحراء، فالصحراء بيتهم». ويستعرض أحوال قبيلة الجهالين في فلسطين، التي زارها في 2011، فيكتب أن أفرادها يعيشون في فخين: فخ الظروف الطبيعية القاسية، وفخ الإدارة الإسرائيلية التي تحكمهم بأنظمتها القمعية. يتحدث عن وضع العرب المزري تحت الاحتلال، ويضرب أمثلة تصف مأساتهم، منها أن المرء يترك للموت إن تعرض لحادث، أو مرض، إذ يمنع عليه الإسعاف السريع، لأنه فلسطيني غير مسموح له الوصول إلى المستشفيات الإسرائيلية. من خلال هذه الجزئية يشرح وضع الضفة الغربية المحتلة، المقسمة إلى ثلاث مناطق، حسب الاتفاقات الموقعة بين «إسرائيل» والسلطة الوطنية الفلسطينية. ويستطرد محدثاً عن تاريخ بدو النقب الذين ظلموا بعد قيام دولة «إسرائيل»، وطردها من صحرائهم، وسلبت إبلهم وأغنمهم، وأحرقت خيامهم، ثم زرع المستوطنون على أبقاضهم. ورغم ذلك يخلص المؤلف إلى نتيجة مفادها أن البدو سيصمدون في منطقتهم «تل الأحمر»، رغم البؤس والظلم لأنهم، كما يؤكد، أكثر الخلق صبراً في العالم.

في ريبورتاج آخر، موسوم بـ «كيف أصبح داود جالوت»، يتحدث دوموسلافسكي عن مآسي أهل فلسطين، ومن خلال العنوان الذي يحيل إلى القصة التوراتية عن داود اليهودي وجالوت الفلسطيني، يلمح إلى أن اليهودي أصبح الآن الظالم. ويتطرق إلى حوادث قصيرة نتجت عن عملية تفجير فلسطينية، تبعها هدم بيوت الفلسطينيين، ويصف مظاهرة لعرب يقضون في مواجهة الجدار العنصري الذي ذهب بأراضيهم وقسمها. ويتحدث عن قنابل الغاز الإسرائيلية التي تخنق النساء والأطفال، والشيوخ دون تمييز. وما يفيد الكاتب في تعزيز موقفه، درأً لانتهاكات قد تأتيه من قوى صهيونية، أنه يترك لإسرائيليين يكرهون الظلم، سرد تجاربهم في مجتمعهم المحكوم بالعنصرية. فميخائيل الذي لا تعجبه تصرفات حكوماته تجاه الفلسطينيين، رغم أنه لم يكن يحب أن تقارن إسرائيل بجنوب إفريقيا

أبناء قبائل الكيكويو الكينية، الذين اعتقلهم البريطانيون سنين طويلة، وعذبوهم في معسكرات الاعتقال. وفي صفوف المستبعدين نرى أيضاً معارضي قبيلة الدينكا التي تريد الهيمنة على جنوب السودان وجعله ملكاً لها، ونجدهم كذلك، في صور شتى، في البرازيل، وكوبا، وميانمار. وفي أماكن كثيرة من الجنوب المهوب. ويجهد المؤلف في تقديم صورة المستبعدين المغيّبين لأعبا «دورالمراقب الذي يثق بحواسه» كما تصفه الصحفية والكاتبة المعروفة ليديا أوستالوفسكا «فيتلمس الذين هُضمت حقوقهم، وحُرموا من قسمة الخيرات، وامتهنت كرامتهم، مدركا أوجاعهم وأسباب «مرضهم». وفي الوقت نفسه، يظهر شكوكه أحياناً، ولكنه دائماً يبحث في أهوال تلك «القسمة الضيزي» بين الشمال المتخّم والجنوب المستلب، موقفاً نتائجها الكارثية على المضطهدين الذين لا حول لهم. يُظهر بأسلوبه البارع، وسرده المنع، كيف يقتل عساكر الجيش الكولومبي شباب الأحياء الفقيرة، ويجعلهم أرقاماً ترفع أعداد القتلى «الإرهابيين» في إحصاءات «الحرب على الإرهاب»، ليقبضوا مكافآت مالية كبرى لقاء ذلك. ويسلط الضوء على الجشع، والظلم، في مناطق كثيرة من الجنوب، منها البرازيل، حيث يُقتل الأطفال المشردون، الذين يسمون بـ «حثة الشوارع»، بناءً على أوامر من أصحاب المتاجر الصغيرة كيلا يعيقوا أعمالهم التجارية. ويوضح دوموسلافسكي أن البؤس يبعد الآدمي عن إنسانيته، فيجعله لا يبالي بمصائب غيره، ولا يُبدي أي تضامن معه. ويصل إلى استنتاج صائب، يلخصه في تساؤل محق: «إن كانت حياتي لا تستحق شيئاً، فكم يمكن أن تكون قيمة حياتك بالنسبة إلي؟».

ينتقد دوموسلافسكي الاستعمار الغربي، ومخلفات الكولونيالية التي أساءت إلى شعوب الجنوب إساءة بالغة. ومن خلال اقتباسات من مؤلفات المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد، يدهشنا المؤلف باطلاعه الواسع على ما حدث من خراب بشري، وأخلاقي، في فترة الكولونيالية وما بعدها. فها هو ليس بغافل عن أفعال المستعمرين البريطانيين الذين فتكوا بأطفال كينيين، إذ أخضعوهم إلى «لقاحات» مميتة في معسكرات الاعتقال. ولا ينسى بدو فلسطين واجتهادهم في بناء مدرسة لأطفالهم من إطارات السيارات، وهبّتهم لحمايتها من الجرافات الإسرائيلية. ويقدم صورة

ينقسم الكتاب إلى أربعة وعشرين فصلاً، تتحدث عن قضايا المستبعدين في بلاد عديدة، ابتداءً بكولومبيا، يُخصص لها (فصلان)، فالبرازيل (خمس فصول)، ثم فلسطين (أربعة فصول: الأراضي الفلسطينية المحتلة، إسرائيل، الضفة الغربية، قطاع غزة)، وبعدها كينيا (وتحظى بفصلين)، فجنوب السودان، فمصر (ولها فصلان)، فجزيرة كوس اليونانية، ليعود إلى أمريكا الوسطى، فالولايات المتحدة، فالكسيك، ثم باكستان وتايلند، وبعدها ميانمار، فكوبا، فالسلفادور وغواتيمالا. تحت كل فصل يلجأ الكاتب إلى وضع فصل تابع، يسميه «خارج إطار الصورة»، وتحت عنوان آخر. وبهذا يمكن النظر إلى الكتاب في الواقع ككتابين، حيث يصبح حجمه الضخم، الذي يضم بين دفتيه حوالي الستمئة صفحة، مسوّغاً. يضم الكتاب الأول ريبورتاجات تتناول الدول المذكورة أعلاه، ودونها المؤلف بعد زيارته إليها، وفيها وقائع مؤلّفة تسردها شخصيات تنتمي إلى فئة المستبعدين، أو المسحوقين، أو من يقف في صفهم. أما الكتاب الثاني، الذي تشترك نصوصه بعنوان واحد، «خارج إطار الصورة»، وتتوالى إثر كل تقرير صحفي، فيتضمن تأملات يسوقها المؤلف عاكسة الأفكار الواردة في ما سبقها من ريبورتاجات. ومع أن دوموسلافسكي يناهض نفسه عن انفعال العاطفية الساذجة، يُحمّل نصوصه هذه رسالة نستشف فيها نبذة أخلاقية تعليمية، يوظفها توظيفاً فلسفياً بارعاً لنقد الجشع الفظ، واللامبالاة التي تسم بميسمها عدداً كبيراً من المتفرجين على عذابات المحرومين. ويُبين أن المستبعدين يمكن وصفهم باسم جمعي: «المغيّبون»، ويمكن تعريفهم بأنهم: «من لا يهتم أحد بهم، ولا أحد يذكرهم، وحتى الصحف تبخل عليهم بعمود يتضمن أخباراً عن غيببتهم». نجدهم في أحياء الفقر في كولومبيا وقد نهبهم الجنود الفاسدون، ثم قتلوهم وقدموهم كمقاتلين إرهابيين مهزومين. وإليهم ينتمي أطفال الشوارع البائسون في ضواحي العواصم العالئالئية، وعشوائياتها. ومنهم الذين يكدحون كالعبيد، منذ الفجر وحتى حلول الظلام في مزارع الكاكاو، من أجل دراهم قليلة. ومنهم كذلك بدو الأراضي الفلسطينية المحتلة المجرّبون على النضال الشاق في المحاكم، ودفع الأتاوات لدولة الاحتلال للوصول إلى مياه الشرب. وإليهم ينتمي أيضاً



ذلك؟».

فيما يخص النصوص التي وسمت بـ«خارج إطار الصورة»، فهي تقرب القارئ أكثر إلى أفكار الكاتب، الذي يبوح بأسرار مهنته. فهو كمراسل صحفي، يعرف الكثير عن كيف تركيب التقارير الصحفية وراء الكواليس. دوموسلافسكي يكتب هنا عن الأشياء التي تبدو غير ذات صلة بموضوع الكتاب الرئيس، لإظهار المشكلة المطروحة من منظور أوسع، أو من زاوية أخرى. وكثيرا ما يتساءل موجهها الكلام إلى القارئ ليشركه في التفكير بمسألة ما، وأحيانا يقتبس جملا من أقوال شخصيات يوافقهم الرأي في قضية يراها شديدة الأهمية. ومن أهم الأمور التي تستحق الثناء أن الكاتب لا يخفي آراءه السياسية أو الاقتصادية، ونجده يشجب النظام الاقتصادي الليبرالي الجديد، وصندوق النقد الدولي، ويفضح الأنظمة الليبرالية التي يحسبها تعمل على إعادة هيكلة النظام الاستعماري، وفرض اقتصاد ما بعد الكولونيالية، وتلميع صورة العولمة وثقافتها الاستهلاكية. ويفهم من آرائه أن الشركات العملاقة، وتأثيراتها في سياسيات الدول العظمى، قد سببت حالة عدم التكافؤ التنموي بين الشمال، والجنوب الذي فتحت أسواقه لمنتجات الشمال، بينما سدت أمام منتجاته أسواق الشمال. ويفضح دوموسلافسكي استراتيجيات كراهية الأجانب المناهضة للهجرة في الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، ويعارض بناء جدار جديدة بين الشمال والجنوب. ولا يفوته الحديث عن موجات اللاجئين التي غصت بها الجزر اليونانية، فيناقش مسألة الحرب في سوريا، وسياسة اللامبالاة بتراجيديا الأبرياء، هذه المسألة التي ستفتح أبوابا أخرى للمستبعبدين الجدد.

مما سبق، يمكن التأكيد أن مؤلف «المستبعدون» لا يقدم خطابا ساذجا، يستدر به عاطفة القارئ، بل يجهد ليبين أسباب نشوء حالات الإقصاء، التي يعيشها ملايين البشر، من منظور تاريخي واجتماعي، مستعرضا الأوضاع الراهنة في بلاد كثيرة متناثرة على قارات ثلاث. ومن الجيد أن الكتاب يُسمعنا أصوات أولئك الذين يشعرون بالمسؤولية تجاه المهمشين المحرومين، فنذكر أنهم ليسوا وحدهم قلقين في مهب الإقصاء. ويمكن القول بقوة إن «المستبعدون» ليس كتابا سهل القراءة، فهو يترك أثرا بالغا في القارئ الذي يعد نفسه إنسانا أولا وأخيرا. وفي الختام يجب القول إن الكتاب ينبغي له أن يأخذ مكانا يليق به في المكتبات العالمية، إن اتسع صدر عالم الديمقراطية الليبرالية لأطاريحه.

عنوان الكتاب: المستبعدون (Wykluczeni)

المؤلف: آرثور دوموسلافسكي

الناشر: Wielka Litera

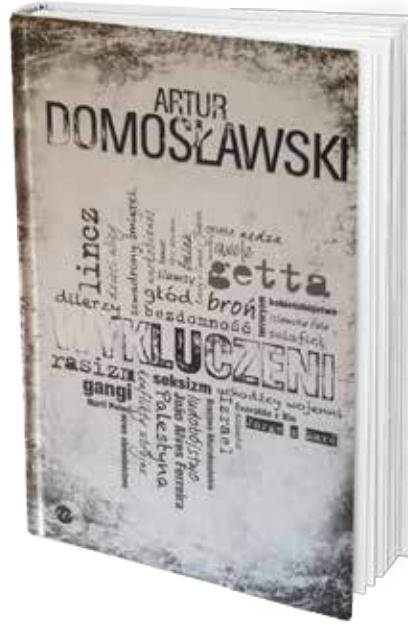
مكان النشر: وارسو، بولندا

سنة النشر: 2016

لغة الكتاب: البولندية

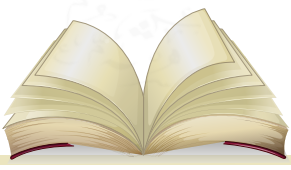
عدد الصفحات: ٥٧٦ صفحة

\* أكاديمي فلسطيني مقيم في بولندا



على أنه عمل يجب أن يعرفه القارئ الذي يروم الحقيقة. فيبرز كلمات نوريت، التي تعلق صورة عبير على حائط في بيتها، وهي كلمات توجهها إلى أم الطفلة الفلسطينية الشهيدة: «إن قاتل ابنتي كان لاثقا إلى حد أنه قتل نفسه، أما الجندي الذي قتل عبيرا، فمن الممكن أنه الآن يشرب الجعة مع أصدقائه، ويذهب إلى المراقص». دوموسلافسكي حريص على التعريف بمحدثيه لإثبات مصداقية ما يورد من أحاديث صادمة لمن يقرأ كتابه. فنحرف، مثلا، أن نوريت حازت جائزة أوروبية على مواقفها الإنسانية، وألفت كتابا عن صورة فلسطين وشعبها في المقررات المدرسية في إسرائيل، تقضح فيه عنصرية هذا الكيان، وكذبه، وتزويره الواقع. هذا التعليم الموجه قد يسوغ تأخر الإسرائيليين في اكتشاف الحقيقة الصادمة. وفي تقريره عن الضفة الغربية، الذي يسمه بكلمات مقتبسة من كتاب لإدوارد سعيد «بعد الحدود الأخيرة، بعد السماء الأخيرة»، يذكر الكاتب بيتين من شعر محمود درويش بهذا المعنى. ويتحدث بانثا أحاديث محاورية من الفلسطينيين، أمثال: عطا جبارة، الصامد في أرضه رغم حرق المستوطنين بيته، والمناضلة الفلسطينية شيرين الأعرج، وسحر فرنسيس «مديرة مؤسسة الضمير لرعاية الأسرى في فلسطين، والبروفيسور في علم الأحياء بجامعة بيت لحم مازن قمصية. وفي تقريره، «كيف يولد المقاتلون»، يستعرض أحوال قطاع غزة تحت حكم حماس، والحصار الجشع، البري، والجوي، والبحري، والأنفاق السرية، ومعاناة الناس الكبرى. وثمة حديث عن إسماعيل هنية، ووصف لشخصيته، يحاول أن يكون الكاتب فيه حياديا، ولكن بحذر. فهو يدرك أن قضية هنية قد تثير خلافا يطغى على ما يريده في كتابه، فالرجل يُصنّف إرهابيا وفق المحافل الغربية. يبوح دوموسلافسكي بما استشف من محاوريه، وبما هو مؤمن به أيضا، أن الظلم والعدوان الواقع على غزة لن يخلف إلا جيلا جديدا لن ينسى. ويؤكد أن الصغار سيسألون حين يكبرون عن شهداء عائلاتهم، وسيكونون مقاتلين حتما، ويضع سؤالاً بلاغياً محقاً في نهاية الريبورتاج: «فما يمكنهم أن يكونوا هنا غير

الأبارتايدية، يتغير أمام الحقائق الصادمة. وبعد أن يجمع إثباتات تسعفه في المقارنة التي كان يرفضها، يتضح له أن ما تقوم به دولته هو أبارتايد منظم، ومشروع في قوانينها. ويأتي بمثل واحد يكفي لإقناع من يطلب الحقيقة: «في حال ارتكاب جريمة في الأراضي المحتلة، تتخذ إجراءات وعقوبات ضد الفلسطينيين، تختلف عن تلك التي تتخذ ضد اليهود». ومن المقارنات الصادمة، لكن المحقة، التي يقيمها دوموسلافسكي، وصف تل أبيب الحبلى ببذخها، ولهوها، وشواطئها الدافئة، وليالي ملاحيتها، والحديث عن البؤس على مرمى حجر منها في المناطق المحتلة. فيتساءل كيف لا يمكن رؤية ما يحدث في الأراضي المحتلة وهو على بعد خمس وعشرين دقيقة من تل أبيب! ويغدو الحديث عن الضمير والأخلاق ضربا من الترف. وما يسترعي الانتباه الفكرة الصحيحة التي ينقلها المؤلف عن مناصري السلم اليهود، أن «إسرائيل» تدفع الفلسطينيين دفعا إلى التسليح و«العسكرة». فهي تستطيع كسب الحرب عسكريا، فتقدم المقاتلين على أنهم إرهابيون، ولا يضرها أو يجرحها إلا النضال السلمي. لذلك يصل دوموسلافسكي ومحدثوه الإسرائيليون إلى استنتاج صائب: أن الإدارة الصهيونية ستقلق حتما، لو توقفت صواريخ حماس عن السقوط على مدنها. ولا يتوانى الكاتب عن بث حقائق كثيرة، تثبت مصداقية أطاريحه، وتكشف عدم موضوعية الإعلام الغربي، الذي لا يأبه بالمغيبين، ولا يرى قضاياهم العادلة. فنجد قصة يوناثان الصهيوني المتحمس، الذي أمن بحق «إسرائيل» في الدفاع عن نفسها، ولكنه اكتشف أخيرا زيف الدعاية الصهيونية، ومن ذلك أن العرب والمسلمين أشرار. والأهم من ذلك أدرك أنه تعرض لغسيل دماغ ككل أبناء جلدته. وكونه طيار حوامة لحالات الإسعاف، شاهد بعينه كيف يُقتل الفلسطينيون في منازلهم بصواريخ الطيران، فرفض الخدمة، وفقد عمله. وعلق على ذلك قائلا: «إن الثمن الذي دفعه قليل مقارنة بما يدفع الفلسطينيون من أثمان». ويلتقط دوموسلافسكي طرف الخيط الذي يفضي إلى استنتاج خطير، لكنه صحيح تماما، مؤداه أن دولة الظلم زائلة. وطرف الخيط يبدأ بموقف اليهودي جيف، الذي عندما شاهد البلدوزر الإسرائيلي يهدم بيت صديقه الفلسطيني، أيقن أن البلد الذي آمن به لم يعد موجودا، ولم يعد يعرف هل كان موجودا أصلا! وليصدم قارئه، يسوق المؤلف قصة نوريت التي فقدت ابنتها الصغيرة في عمل انتحاري فلسطيني. هذه اليهودية صدمت حكومتها، وأبناء جلدتها، إذ لم تلم الانتحاريين بمقتل ابنتها، بل اتهمت حكومتها: «ابنتي، لأنها إسرائيلية، قتلت على يد شاب كان مُدنا، ومستعبدا، وفاقد للأمل، لدرجة أنه قرر الانتحار... لأنه فلسطيني». وتقول: «لا فرق أخلاقيا بين الشخص الذي قتل ابنتي، والجندي الإسرائيلي في نقطة التفيتش، الذي لا يسمح لامرأة فلسطينية حامل بالمرور، فتخسر طفلها نتيجة لذلك. ابنتي تماما مثل قاتلها «ضحية للاحتلال». والأمر الأفظع الذي تدرکه نوريت، وينقله دوموسلافسكي، أن القاتل الإسرائيلي لا يعاقب على جريمته. يقدم الكاتب سلوك نوريت بعد مقتل عبير الفلسطينية، ذات العشرة أعوام، على يد جندي إسرائيلي،



# تكنولوجيا إدارة الأموال في الغد القريب

.. هونج جانغ وون

محمود عبد الغفار \*

عشية الذكرى المئوية للثورة الاشتراكية الروسية (البلشفية) التي شهدت البلاد معها منعطفًا تاريخيًا حادًا والتي أحدثت تغييرات جذرية في أسلوب حياة الشعب الروسي، أسلوب الحياة الذي حضره في الزمن على مدى قرون طويلة متعاقبة، عشية تلك الذكرى صدر عدد كبير من الأعمال التي صوبت نظرة فاحصة جديدة إلى ذلك الفصل التاريخي وما رافقه من أحداث وذلك من جوانبه التاريخية والسياسية والاقتصادية. وبقي الجانب الديني مهملاً إلى حد ملحوظ ولم ينل حظه من التغطية والتمحيص البحثي، كما تندر الأعمال التي ناقشت حقيقة أن في عام ١٩١٧ كانت روسيا على مفترق طريق مع عقيدتها المسيحية، مرة وإلى الأبد.

الناجحة جداً في إدارة الأموال عبر تكنولوجيا الإنترنت بشركة «بليون» البولندية التي تُهيمن على إدارة الكثير من الأمور الاقتصادية لشركات عديدة في العالم. «جوجل» و«علي بابا» نموذجان فذان كذلك في هذا المجال. ويقدم المؤلف مثلاً لما يُمكن لهذه التكنولوجيا أن تقوم به فيقول لو أن صاحب أحد المحلات قام بتشغيل خدمة الدفع الفوري عبر الإنترنت بحساب المحل فإنه يستطيع أن يعرف عدد الهواتف القريبة من المحل والتي لديها خاصية الشراء أو التسوق عبر الإنترنت، وبالتالي يمكنه أن يرسل رسائل ترويجية وتقديم عروض تخفضية مثل هؤلاء العملاء وفي أوقات قربهم من محله. المثال الثاني من فرنسا، حيث يذكر المؤلف أن بنك «مرحباً» في باريس يتيح لمستخدمي الهواتف الذكية أن يحصلوا على قروض بنكية بمجرد القيام بكتابة البيانات المطلوبة وإرسالها إلى البنك عبر الهاتف، وكذلك شراء تذاكر الطيران وإرسال النقود إلى الغير دون الحاجة إلى الذهاب إلى البنك.

الباب الثاني عنوانه «مروراً بكل ما يتعلق بالحياة هنا وهناك». ويرى المؤلف أن تلك الشركات الجديدة تستثمر مبالغ طائلة في مشروعات كبرى ستغير كل أشكال سوق التداول المالي، كما أنهم يصممون وينتجون ما سيغير الحياة الحقيقية على سطح الأرض؛ كمركبات الفضاء وآلات السير الإلكترونية وأجهزة التصوير وتبادل المعلومات الرقمية. ومن مميزات نظام إدارة الأموال عبر تكنولوجيا الإنترنت أنه يتيح لمستخدميه التعبير عن وجهة نظرهم وكتابة التعليقات حول ما يزعجهم أو يقلقهم عند استخدام هذا النظام، وبخاصة عند حدوث أخطاء تتعلق بكتابة البيانات في استمارات الدفع النقدي أو أية أمور غير مريحة تتعلق بتقنيات تلك التكنولوجيا. هذا النظام أيضاً

«تكنولوجيا المال تعني التوافق أو المزج بين المال والتكنولوجيا الرقمية عبر الإنترنت»، ولذا فمن البديهي أن يستهل المؤلف هذا الباب بطرح سؤال أساسي حول مفهوم «تكنولوجيا المال». وفي الإجابة عنه يرى المؤلف أن تكنولوجيا الأموال مصطلح عالمي يتضمن داخله مجالات عديدة. كما يرى أن هناك نماذج بسيطة جداً في هذا المجال مثل القيام بعمليات مالية ودفع فواتير والقيام بخدمات بنكية كالاقتراض وكذلك القيام بعمليات تتعلق بشركات التأمين على السيارة مثلاً من خلال الهاتف الذكي. فبعض شركات التأمين تقوم الآن بوضع «حساس» متصل بالإنترنت داخل السيارة المؤمن عليها، كما أنه متصل كذلك بالبنك الذي يتعامل معه صاحب السيارة وذلك لتسهيل الكثير من الأمور المتعلقة بالسيارة حال وقوع الحوادث. ويرى المؤلف أن هذا النوع من التكنولوجيا المتطورة جداً تأخر في كوريا رغم وجود البنية التكنولوجية اللازمة له، وذلك بسبب بعض القوانين المكبلة للإبداع أو الابتكار بشكل عام، مما يعوق الكثير من التطورات الطموحة التي ينشدها الكثيرون في الوقت الذي قامت فيه الولايات المتحدة الأمريكية والصين بدراسات جادة في هذا المجال؛ بما يعني أن الدولتين تجاوزتا مرحلة البداية وبلغتا مرحلة الانطلاق التي تجعلهما رائدتين حقيقتين بالفعل. صحيح أن كوريا تأخرت عن بعض الدول لكنها بكل تأكيد في موقع أفضل بكثير بل ولا يمكن مقارنتها بالدول الأفريقية مثلاً. ففي كوريا بنوك عديدة لها خبرات متقدمة في استخدام الإنترنت بحيث يمكن لعملاء تلك البنوك القيام بكل ما يُريدونه من بيع أو شراء بسهولة ودون قلق أو انزعاج عبر الحواسيب والألواح الإلكترونية والهواتف الذكية. ويضرب المؤلف نموذجاً لإحدى الشركات

ما العلاقة بين النموذج المدهش لشركة «علي بابا» الصينية المذكور في الجملة الفرعية أسفل عنوان الكتاب، وصورة اللوح الإلكتروني والهاتف الذكي وأيقونة الدولار الأمريكي بغلاف الكتاب؟ العلاقة باختصار تجسدها الجملة الأولى أعلى العنوان حول كيفية إدارة المال في عصر ثورة التكنولوجيا الرقمية عبر الإنترنت؛ تلك العلاقة التي سيتناول المؤلف جوانبها المختلفة عبر صفحات الكتاب.

الكتاب في حد ذاته إطلالة تمهيدية لاختصاصي محترف في مجال التكنولوجيا الرقمية لإدارة الأموال عبر الإنترنت في المستقبل القريب، يُقدمها صاحبها بنوع من التبسيط غير المحل، بحيث يحافظ على الدقة العلمية لما يطرحه من أفكار دون حوض في تفاصيل تقنية قد لا يرغب القارئ العادي في التعرف عليها أصلاً. المؤلف «هونج جانغ وون» متخصص في الاقتصاد وإدارة الأعمال بجامعة «يون سيه» بالعاصمة سيول بكوريا الجنوبية. رجل شغوف بالمعرفة والاطلاع، مما دفعه لتأمل الكيفية التي يعيش بها الناس في هذا العالم بحدود معينة من المال والتكنولوجيا في عصر اصطلح على تسميته «العولمة»! وهو يُقدم عرضاً شائقاً لموضوع الكتاب عبر خبراته الشخصية وتجاربه الخاصة بهذا المجال بعد أن قام بزيارة العديد من البلدان المتقدمة في استخدام تكنولوجيا الإنترنت في إدارة الأموال وما يتعلق بها من عمليات وأنشطة حياتية يومية مختلفة. زار فرنسا وإنجلترا وطوكيو وموسكو وكندا وبولندا بهدف التعرف عن قرب على مصطلح «تكنولوجيا إدارة الأموال» الذي لم يكن معظم الناس في كوريا يعرفون عنه الشيء الكثير.

يأتي الكتاب في خمسة أبواب. الباب الأول عنوانه



عن أسلوب قيادة مالك السيارة وعاداته في القيادة، الأمر الذي يسمح لها أن تقرر إن كانت ستعطيه تعويضاً عن الأضرار الناجمة عن وقوع حوادث من عدمه! الجانب المظلم في هذا المستقبل التكنولوجي هو اختفاء حوالي ٧,١ مليون وظيفة في مجالات التصنيع والفنون والإعلام حتى عام ٢٠٢٠م في ١٥ دولة بالعالم، وفي المقابل سوف توجد حوالي ٢ مليون فرصة عمل جديدة في مجال الحواسيب والرياضيات والعمارة، مما يعني أن نقص الوظائف سيبلغ ٥,١ مليون وظيفة. المستقبل التكنولوجي القريب في إدارة الأموال كتب سطرًا جديدًا في التاريخ وبالتحديد في ٢٢ أكتوبر ٢٠١٥م وذلك بقبول «Bit Coin» كعملة معترف بها ويمكن التعامل من خلالها عبر الإنترنت. صحيح أنها تكنولوجيا جديدة وقد لا يُكتب لها النجاح لكنها وبكل تأكيد ستحدث تغييرات على النموذج الاجتماعي المألوف في إدارة ما يتعلق بالأموال وعلاقة البشر بها على وجه التحديد.

الباب الخامس والأخير من الكتاب بعنوان «ابتسامات ودموع متعلقة بنظام تكنولوجيا إدارة الأموال عبر الإنترنت في كوريا الجنوبية». يرى المؤلف أن الدول التي قررت التعامل بهذه التقنيات ومن بينها كوريا الجنوبية تخوض الآن حربًا ضروسًا تحت سطح الماء على حد تعبيره بهدف ترسيخ أقدامها في عمل يمكن وصفه بكل بساطة بكلمة «مغامرة». في هذا السياق هناك ما يدعو للتفاؤل بشأن كوريا. فقد اقتحمت شركة «سامسونغ» السوق الأمريكية عام ٢٠١٥م وحققَت نجاحًا ملحوظًا رغم التعاطف الكبير من الإعلام الأمريكي مع شركة «آبل» المنافس الشديد لسامسونغ. ولذا يثق المؤلف أن كوريا يمكنها القيام بدور رائد في آسيا في مجال تكنولوجيا إدارة الأموال عبر الإنترنت، ويؤكد أنه لن يدخر جهدًا في تقديم كل خبراته وما يملكه من معرفة قيمة ومعلومات بهذا المجال لأجل أن تبلغ كوريا تلك الريادة المنشودة.

عنوان الكتاب: تكنولوجيا إدارة الأموال في الغد القريب

المؤلف: هونج جانغ وون

الناشر: ميل كيونج جيه

سنة النشر: فبراير ٢٠١٦م

اللغة: الكورية

عدد الصفحات: ٢٢٨

\* مدرس الأدب الحديث والمقارن

كلية الآداب- جامعة القاهرة

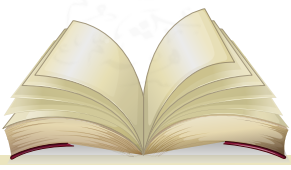


تعاملات البنوك بالولايات المتحدة، وهو رقم كبير في ضوء الفترة الزمنية البسيطة جدًا التي بدأتها هذه البنوك وواجهت معها عشرات تعافت بعدها سريعًا بداية من عام ٢٠١١م. القوة الثانية موجود بالصين من خلال شركة «علي بابا» الشهيرة والتي تأسست عام ٢٠١٣م، وهي شركة يمكن من خلالها إدارة كل ما يتعلق بالأموال والاستثمار- بدون استثناء تقريبًا- بالإنترنت عبر الهواتف الذكية. أما اليابان فقد تأسس فيها حتى الآن بنكان اثنان. في أوروبا هناك ما يقرب من ثلاثين بنكًا مركزها بنك «مرحبًا» الفرنسي الذي تأسس في باريس وامتدت خدماته إلى بلجيكا وإيطاليا وألمانيا. أعتقد أن هذا العرض للقوى التنافسية التي تواجهها كوريا عالميًا يجيب عن السؤال الذي طرحه المؤلف في هذا الباب من الكتاب. صحيح أن الأمر صعب لكن كوريا تمتلك كل مقومات النجاح في اقتحام هذا المجال دون شك.

الباب الرابع بعنوان «معالم أسواق المال في المستقبل القريب». يرى المؤلف أنه عندما تنجح شركات المال في تحويل خدماتها إلى الإنترنت، فإنها ستضمن إقبالاً أكبر من عملائها على استخدام تقنيات تكنولوجيا إدارة الأموال عبر الهواتف الذكية فيما يقومون به من بيع أو شراء وبشكل يومي تقريبًا. في هذا السياق سيكون أمنًا للعميل أن يعطي بياناته المتعلقة بما يملكه من أموال إلى الحاسوب المتصل بشركات استثمار الأموال، وسيقوم الحاسوب بتزويده بكل المقترحات المتعلقة بتحقيق أرباح مضمونة بدون وساطة أو سمسة من شركات توظيف الأموال المألوفة. أسواق إدارة الأموال مستقبلاً متطورة جدًا إلى حد دفع إحدى شركات التأمين الكورية إلى تزويد السيارات التي تتولى مسؤولية التأمين عليها بشريحة إلكترونية متصلة بالإنترنت تمد الشركة بمعلومات دقيقة

يكفل لمستخدميه معرفة أسعار الفائدة ومعدلات تغيرها بدقة شديدة بل ويقوم بحسابها لهم على الأمدين القريب والبعيد جدًا وبالذقة ذاتها. لقد وفر هذا النظام كذلك بطاقات ائتمانية متطورة جدًا وكأنها صنعت في الجنة على حد وصف المؤلف. فبطاقة «شن هان» الائتمانية تستطيع أن تتنبأ بأحوال السوق وبالتالي فهي قادرة على التنبؤ بما يفكر فيه عملاء البنك من مستخدمي البطاقة، وبما يرغبون في شرائه عادة ثم ترسل البطاقة كل هذه البيانات إلى موقع البنك الذي يمكنه في هذه الحالة أن يتعرف بمنتهى البساطة على مدى رغبة عملائه في مواصلة استخدام بطاقات البنك من عدمها، كما يمكنه التغلب على مسائل كثيرة تتعلق بطلبات إلغاء الشراء قبل حدوثها من خلال تحليل الخطوات التي يقوم بها العملاء عند الشراء. أما شركة «سامسونغ» فقد طورت بطاقة ائتمانية تقوم بعمليات حسابية متطورة جدًا بحيث تزيد من استخدام عملائها لتلك البطاقة. هذا فيما يتعلق بمعرفة العميل لأرقام استهلاكه ونسب الفوائد التي عليه تحملها بدقة وتحديد شديدين، أما بالنسبة لشركة «سامسونغ» ذاتها فالبطاقة الجديدة تمدّها بمعلومات قيمة عن عدد مرات استخدام العميل لها، وعدد مرات قيامه بالتسوق والمحلات والمطاعم والمقاهي التي يتردد عليها ونوع المنتجات التي يشتريها، وبالتالي تتحرك الشركة لعمل اتفاقيات مع أكبر عدد ممكن من تلك الأماكن بحيث تضمن استمرار قيام عملائها باستخدام البطاقة الجديدة، كما تضمن تلك الأماكن زبائن دائمين مقابل حصول هؤلاء الزبائن على تخفيضات مَرْضِيَّة ومتميزة أيضًا. ثم يتطرق المؤلف لمسألة البطاقة الذكية التي أنتجتها إحدى الشركات الهندية والتي تتيج لشركة «شن هان» مثلاً إدماج (٨) بطاقات ذكية في بطاقة بلاستيكية واحدة مزودة بخاصية الضغط على زر موجود بها فيقوم على الفور بتحويلها إلى بطاقة ثانية بحساب للعميل نفسه في بنك آخر حتى ثمانية بنوك! أي أنها باختصار ثمانية بطاقات ذكية مدمجة في بطاقة واحدة.

الباب الثالث بعنوان «بنوك الإنترنت الشهيرة». يرى المؤلف أن كوريا كانت متأخرة عن ركب البنوك المحترفة في التعامل مع تكنولوجيا إدارة الأموال عبر الإنترنت مقارنة ببعض الدول التي أشار إليها من قبل. لقد بدأت كوريا للحاق بهذا الركب عام ٢٠١٦م، من خلال بنك «كاكاو» الذي مقره «ك-بنك»، فهل ستجح كوريا الجنوبية في التعامل مع هذه التقنيات؟ أهمية هذا السؤال تكمن في أن بنوك الإنترنت لا تستطيع تجاهل قوة السوق الأمريكية. فطبّقًا لدراسات أجرتها مؤسسة «أو-ري» الكورية للتعاملات المالية فإن بنوك الإنترنت الأمريكية تحتل نسبة ٣,٩٪ من



# تفسير القرآن؛ مساهمة في التنوير. مجموعة من المؤلفين (تنسيق فيلي شتويل)

رضوان ضاوي \*

التنوير والحوار ينبعث من الإذاعة

أصل هذا الكتاب برنامج شهير في راديو ألمانيا، استمر لما يقارب السنتين وكانت آخر حلقة في سبتمبر ٢٠١٦. وتحول هذا البرنامج إلى كتاب في التفسير الميسر باللغة الألمانية. وقد سبقت هذه التجربة تجارب عديدة في هذا المجال من بينها كتاب قول على قول المؤلف لـ حسين سعيد الكرعي الذي كان أصله برنامجاً يحمل الاسم نفسه وكان يذاع على أثير إذاعة بي بي سي، وكتاب «التيسير في التفسير» وكتاب «اللغة الفرنسية أو الكتاب الفرنكفونيون» على إذاعة ميديا المغربية. الجدير بالذكر أن هناك تجربة فريدة في صلب موضوع الكتاب هي البرنامج التفسيري المغربي «التيسير في أحاديث التفسير» للشيخ المكي الناصري (١٩٨٥)، الذي صدر في ستة أجزاء.

فقد أجمع العلماء على أن حدث انشقاق القمر هو معجزة إلهية تثبت نبوة محمد. لكن سياق الآية لا يساعد على توضيح مسألة ما إذا كان الأمر يتعلق بحدث ماضٍ أم قادم؟ وهي الإشكالية نفسها التي تشير إليها الآية الثانية من سورة الحشر (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) عن طرد أهل الكتاب: هل حدث طرد أهل الكتاب في عهد النبي أم أن الحدث له علاقة بالمستقبل، أي في الحشر.

أمّا توماس باور فقد تناول الآية التي تقول (حرمت عليكم الميتة) (المائدة، الآية ٣) بالقول إنها تبدو سهلة الفهم. لكن هذا غير صحيح من وجهة نظره. ويقول إنه توجد آية أخرى مشابهة: (حرمت عليكم أمهاتكم) (النساء، ٢٣). ويسأل: ماهي السلوكيات التي حرمت على الإنسان تجاه الأم وتجاه الحيوان؟ يجمع أهل العلم أنه يحرم الزواج من الأم، ويحرم أكل الميتة ما لم يذبح الحيوان بطريقة إسلامية. لكي يكون التفسير كاملاً، لابد من الاستفادة من النصوص النبوية الموازية للموضوع مثل حديث ميمونة رضي الله عنها الذي يبيح أكل الميتة (مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة يجرونها فقال: «لو أخذتم إهابها؟» قالوا: إنها ميتة. فقال: يطهرها الماء والقرظ)، في حين يناقضه حديث ابن عكيم: (إذا أتاكم كتابي فلا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب).

من أجل حل لغز هذا التعارض يقترح توماس باور ثلاث منهجيات: ١. الاستعانة بمسألة الناسخ والمنسوخ التي يمكن تطبيقها أيضاً على الحديث، فينسخ الحديث ما قبله. ٢. منهجية التحقق والتأكد من درجة صحة الحديث من عدمها (نقد الحديث). هكذا يظهر لنا بأن حديث عبد الله بن عكيم مرسل لأنه لم يسمع رسول الله. ٣- استعمال الحديثين المتعارضين كليهما. فبدل أن يعمل المرء جاهداً على إنكار نص قرآني أو حديث، يبحث عن التفاصيل الدقيقة في أحاديث أخرى ويتدقيق المصطلحات المستعملة منها. والنتيجة التي يتوصل إليها الباحث توماس باور هي أن النصوص التي تقبل مثل هذا الاستعمال المزدوج هي نصوص تدل على انفتاحها على العديد من التفسيرات وتسامحها إزاء هذه التعددية.

مداخلات الباحثين، مثل موضوع إشكاليات التفسير، وصفات الله، والنبي محمد، والمرأة، وأهل الكتاب، والعنف والحرب، والتاريخ والحداثة، والعلوم الطبيعية، والسوسيولوجيا والتعليم.

وشارك في تفسير الآيات القرآنية مجموعة من الأكاديميين المتخصصين في العلوم الإسلامية المنتهين إلى مجموعة من المؤسسات الأكاديمية العالمية. ومن ألمانيا شارك خيرة الباحثين الألمان في مجال الدراسات الألمانية مثل توماس باور Thomas Bauer، وهارتموت بوبتسين Hartmut Bobzin وماركو شولر Marco Schöller، وهانس تسيكر Hans Ziker.

ومن أهم الصعوبات التي واجهت المشاركين في إعداد السلسلة والكتاب معاً هي الحديث عن القرآن والعمل على تبسيطه، خاصة أنه أعد خصيصاً لكافة الناس عبر موجات الأثير. قد انبرى لهذه المهمة علماء الإسلام في ألمانيا في إطار اهتمامهم بالقرآن وبالكتاب المقدس للمسلمين وحياة المسلمين اليومية في ألمانيا، ففي هذا الكتاب، تم اختيار آيات قرآنية بعناية وتم ترتيبها وتقديمها في سياقها العلمي والديني من طرف خبراء ومتخصصين.

القسم الأول: نماذج من القراءات

كان بوبتسين قد تناول التفسير ضمن محور الأنبياء قوله تعالى: «إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً» (سورة مريم، الآية ٣٠). بدأ هارتموت تفسير الآية الكريمة بتذكره لحدث توصله ببطاقة بريدية من فلسطين تخص موضوع عيد ميلاد المسيح وفيها صورة مريم تحت النخلة في إشارة إلى فكرة الرواية الإسلامية عن المسيح وأمه. وانطلاقاً من الآية الكريمة ركز المفسر على تأكيد القرآن على بشرية المسيح.

أمّا ماركو شولر فقد تناول بالتفسير الآية الكريمة (اقتربت الساعة وانشق القمر) (سورة القمر، الآية ١). ينطلق ماركو شولر من كون مسألة غموض بعض الكثير من الآيات في القرآن ولا يمكن فهمها من خلال القراءة البسيطة، خاصة تلك النصوص المثيرة للجدل، وهي نصوص لا يمكن للمرء أن يحدد بالضبط إلى أي حدث تاريخي تشير هذه الآيات؟

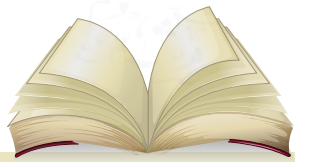
يعدّ التفسير الإذاعي من أحدث الوسائل لتقريب القرآن الكريم إلى عقول وقلوب المهتمين والمتلقين، وقد أحرز البرنامج التفسيري «تفسير القرآن» Koran erklärt، الذي كان أول بث له على أثير إذاعة ألمانيا في سنة ٢٠١٥، وتعلقت به أسماع الناس من ألمانيا أيما تعلق لصبغته التربوية وطابعه الإصلاحية البارز، على اهتمام الألمان، فبحسب آراء المستمعين الألمان لا يمكن وجود برنامج أكثر نفعاً وروعة من هذا البرنامج في الدنيا.

وتقوم فكرة البرنامج على قيام متخصصين في الإسلام بتفسير آيات قرآنية مختارة من القرآن، يتم تقديمها ضمن إطارها التاريخي. لقد بدأ الناس يتحدثون عن القرآن، لكنهم يريدون أيضاً أن يفهموه. ولا يمكن فهم القرآن إلا ضمن سياقه التاريخي.

كانت ردود الفعل أساساً على هذه السلسلة الإذاعية إيجابية إلى حد الدهشة، فقد وصل الكثير من النهائي المخلصة إلى محرري البرنامج لطردهم هذه السلسلة، فهو أمر مطلوب وتجربة يمكن أن تعمم على الإنجيل وعلى باقي الكتب المقدسة في زمن يعاني فيه الحوار بين الثقافات والأديان أزمة حقيقية. وقد ركز الكتاب على المواضيع القرآنية الرئيسية التي يجد فيها الباحثون إشكالية مثل «الدعوة إلى العنف». لهذا كانت فكرة البرنامج الأساسية هي التطرق إلى الجدل المتنامي داخل المجتمع الألماني من خلال تخوفه مما قد يهيئوه له الإسلاميون والراديكاليون من دعوة إلى العنف. ومن ناحية أخرى هناك ظاهرة العداء للإسلام والمسلمين، ويستعمل أعداء الإسلام القرآن لهذه الغاية، لأن الكثيرين لا يفهمون ولا يعرفون خلفيات وسياق الآيات القرآنية.

كتاب «تفسير القرآن، مساهمة في التنوير»

يتكون هذا الكتاب من مقدمة وقسمين، إضافة إلى فهرس أسماء المتخصصين في الدراسات الإسلامية المشاركين في الكتاب ودليل الآيات التي تم تفسيرها في هذا الكتاب. وقد ضم القسم الأول من الكتاب المكوّن الأساس له وجاء بعنوان «تفسير القرآن- نصوص من البرنامج في إذاعة ألمانيا»، وتم توزيع هذه النصوص على ١٧ موضوعاً صنّف المحرر ضمنها



في السياق الصحيح، ولهذا فقد سلك علماءنا منظورا آخر في تفسيرها، فالآيات القرآنية نزلت في إطار وضعية تاريخية معينة لكي تنشر الإيمان. وهنا يشير العلماء إلى مسألة هي أنه في ذلك الوقت كان جدال بين محمد النبي الذي أسس في الوقت ذاته مجتمعا جديدا والذي يجب أيضا أن يثبتته عسكريا وسياسيا في شبه الجزيرة العربية وبين قريش. فإذا كنا سنتصور المجتمع القبلي - بالمقابل نتحدث عن الأمة في السياق الأوروبي -، فقد خلق هذا الأمر صراعا بين هذه القبائل على السلطة. ويقول الكثيرون إن هذه الآيات صالحة فقط لذلك الزمن وليس لها تأثير كوني وصلاحية ممتدة بشكل عام.

إذا فقد كان هذا الكتاب «تفسير القرآن، مساهمة في التنوير» ثمرة للدروس العامة التي احتكك فيها المستمع والقارئ الألماني احتكاكا يوميا مباشرا مع معاني القرآن الكريم فرصة للتأكيد من جديد، على الحاجة الماسة لمثل هذه المشاريع الفكرية والحوارية المنفتحة على الثقافات وعلى الأديان.

وقد قسم هذا التفسير إلى حلقات كل واحدة منها تشمل آيات مختارة من القرآن، جُعل لكل حلقة تمهيد يتطرق فيه عالم الدين لمضمون الآية أو موضوعها العام، ثم يعرض للسياق الذي ورد فيه وارتباطه بما قبله من القرآن، بأسلوب شيق وسهل، مبرزا أوجه التناسب بين الآيات، وقد احتزز من المصطلحات العلمية والفقهية التي يمكن أن تعيق عملية التواصل والفهم على المتلقي الألماني. هكذا يمكننا أن نستنتج أهم المنهجيات التي اتبعها المساهمون في هذا الكتاب. فقد عملوا على إعانة السامع على الفهم من خلال الاستهلال بشرح موضوع النص القرآني. كما أنهم افترضوا وجود وحدة موضوعية للآيات المدروسة. واعتنوا بأوجه التشابه بينها مستعينين في ذلك بمنهج «التفسير الموضوعي» حين أوردوا الآيات القرآنية التي تتحدث في موضوع الآية المفسرة نفسها، ومقارنة الآيات القرآنية الواردة في كل موضوع موضوع، وكل ميدان ميدان، إعمالا لمبدأ التكامل الذي يميز كتاب الله. وقد احتزز الباحثون من المصطلحات العلمية والفقهية، وتجنبوا اللغة الصعبة، واتبعوا الأسلوب الميسر في بيان معاني القرآن من خلال الاهتمام بالقضايا الواقعية، وبهموم الناس المعاشة واعتماد الاختصار والإيجاز بما يتوافق والأسلوب الصحفي الإذاعي.

إن حضور الطابع التربوي والهَمّ الإصلاحي والغرض التنويري في هذا الكتاب، يؤكد على اهتمام الأوساط الثقافية الألمانية بالحوار مع الإسلام من خلال عملهم الجاد في فهم معاني القرآن الكريم ودفع شبهة الإرهاب والعنف عنه.

الكتاب: تفسير القرآن، مساهمة في التنوير.

الكاتب: تنسيق فيلي شتويل، مجموعة من المؤلفين.

الناشر: زوركامب ( 297 صفحة)، 2017.

اللغة: اللغة الألمانية.

\* باحث في الدراسات الألمانية، الرباط



إن هناك إسلاميين يستعملون نصوصاً قرآنية لكي يبرروا بها سلوكهم. كما يلجأ معادون للإسلام إلى النصوص نفسها لكي يظهروا ما يسمونه التخلف الشامل للدين.

إن أهم سؤال يطرح في ما يتعلق الأمر بالموضوع وضمن هذا المشروع هو التالي: هل بهذا الكتاب «تفسير القرآن، مساهمة في التنوير» يمكن أن تصبح النقاشات الألمانية في مجال الدراسات الإسلامية وتلقى معاني القرآن الكريم موضوعية؟ إن هذا المطلب هو مطلب رئيس، لأنه هو غاية هذا الكتاب. ويعتقد المشرفون على هذا الكتاب بأن الكثير من الناس الذين يريدون أن ينظروا إلى القرآن وإلى الدين الإسلامي بشكل موضوعي، عليهم أن يرجعوا إلى هذا الكتاب والنظر فيه. وبخصوص الكثير من الناس الذين يريدون النظر إلى القرآن وإلى الإسلام بشكل غير موضوعي فإنهم لن يجدوا غايتهم في هذا الكتاب.

إن هذا الكتاب فيه حداثة وتجديد في عالم الكتب الألمانية، فقد تم اختيار نصوص قصيرة مرتبطة بسور محددة وبالموضوع المطلوب في الآية من طرف علماء مشهود لهم في هذا المجال من كل العالم. وليس مطلوبا أن يقرأ المرء الكتاب من أول صفحة إلى آخرها. ويمكن للمرء أن يبحث في الكتاب عما يحتاج إليه وما هو ضروري لاهتماماته باتباعه للمنهج الموضوعاتي، فقد قام مؤلفو الكتاب بتصنيفه حسب الموضوعات: موضوع سياسي، مواضيع دينية أو كان الأمر يتعلق بالموضوع الكبير وهو العنف.

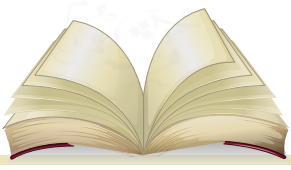
ترتيب آيات القرآن في السياق التاريخي يمكن توضيح هذه المسألة من خلال موضوع العنف الذي تطرق له الباحثون المساهمون في هذا الكتاب، إن ما يسميه الكتاب الآيات الممغزة Skandalverse التي سمع عنها الكل وشكلت عند البعض إشكالية مثل الآية الكريمة «اقتلوهم حيث ثقفتوهم» (البقرة، 192)، Tötet ihr, wo sie findet، فمن جهة استعمل المسلمون هذه الآية لكي يمارسوا العنف ويبرروا وحشيتهم وأعمالهم الإرهابية، لكن أعداء الإسلام استعملوها بدورهم لكي يبرهنوا على أن الإسلام دين يستحق اللوم ويجب محاربته. ومن ناحية أخرى يتعلق الأمر بمسألة كيفية وضع هذه الآية

لقد منح المستعرب وعالم الإسلاميات توماس باور، حامل جائزة «لايبنتس جوتفريد فلهيلم» مفهوم التسامح الملتبس باعتباره خصلة للعالم الإسلامي. وباختصار شديد، يقول المفهوم بأن الغموض والتعارض واللامفهوم في سلوك التاريخ الإسلامي لا يعد خصلة سيئة يجب بالضرورة تجنبها. على العكس من ذلك فإن وجود تفسيرات متعددة ومختلفة تعد قيمة كبيرة في حد ذاتها، وخير مثال على ذلك العبارة الكلاسيكية «والله أعلم»، والله خير العارفين». هذا يعني منح مجال أوسع لمزيد من التفسيرات بالقول: «لقد قدمنا أفضل ما عندنا، لكن في النهاية نحن بشر نمتلك قدرات محدودة، مما قد يؤدي بنا إلى ارتكاب أخطاء وسوء فهم في أعمالنا».

القسم الثاني: مساهمة تنويرية في الأديان المقارنة يضم القسم الثاني من هذا الكتاب ثلاث دراسات مطولة لثلاثة علماء ألمان متخصصين في الدراسات الإسلامية. ففي دراسة تورستن غيرالد شنيدر Thorsten Gerald Schneiders «لمحة تاريخية عن تفسير القرآن» تناول الكاتب فيها التأثيرات الزمكانية على فهم القرآن، وأهم كتب التفسير الكلاسيكي والمعاصر للقرآن وعناصرها، وتاريخ أهم ترجمات معاني القرآن إلى الألمانية. أما المستعربة أنجليكا نويثرت Angelika Neuwirth فقد جاءت دراستها مختزلة إلى حد ما بعنوان «تفسير القرآن بين علم الدين والاستشراق». وجاءت الدراسة الثالثة بعنوان «حضور الإسلام في الإذاعة الألمانية لسبستيان إنجلبرشت Sebastian Engelbrecht». ومن المواضيع التي تناولها الباحث في دراسته هذه السياق الديني والقانوني والسياسي والصحفي للتفسير القرآني، وصورة المسلمين في الإعلام الناطق باللغة الألمانية. وقد دعا الباحث إلى وجوب عمل المسلمين على تفسير وشرح القرآن، كما تحدث عن التأثيرات الزمنية على فهم القرآن (موضوع العنف مثلا)، وإشكالية التطور الحالية تكمن في الراديكالية، والراديكاليون المتشددون يميلون إلى فهم القرآن في زمن تشكل النص، فيحاولون إحياء الماضي في مثاليته الأخلاقية ويسقطونها على الحاضر، وهذا يؤدي إلى مفارقة تاريخية تنضوي على فكرة المجتمعات التي تتطور مع تطور الدين، فيحيد فهمهم الديني عن القوانين المعاصرة الأخلاقية والفكرية بشكل كبير (الزمن الحجري للإسلام).

إن الهدف من الكتاب هو الإخبار، والتنوير، والملاحظة المتعددة، ومواجهة التخوفات من الآراء المترسخة مسبقا، فالكثيرون يتحدثون عن القرآن، ولكن القليلين قرؤوه أو اهتموا حتى بسياق نصه الثيولوجي. رغم ذلك يعترف منسق هذا الكتاب فيلي شتويل Willi Steul على أنه لا يوجد موضوع مركب وصعب يهتم به الجمهور بقوة مستقبلا مثل اهتمامه بالتطورات المرتبطة بالكلمة السحرية «الإسلام».

ويصوب كتاب «تفسير القرآن، مساهمة في التنوير» إلى ترتيب وشرح وتبليغ القرآن. فقد قام علماء متخصصون في العلوم الإسلامية بشرح وتفسير آيات قرآنية مختارة، إذ منهجهم في ذلك وضعها في إطارها وسياقها التاريخي. ومن بين أهداف هذا الكتاب منع سوء استعمال الكتاب المقدس، والمساهمة في التنوير الديني. إننا نتحدث في القرآن عن «صور إشكالية، إذ



# كيف نقرأ التراث الحابادي؟ أرئيل روط

فوزي البدوي \*

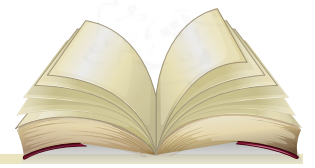
لا يعرف القراء العرب في غالبيتهم الشيء الكثير عن اليهودية الحديثة والمعاصرة في مجالات الفكر والفلسفة والتصوف والدين فقد غطت الصهيونية والصراع السياسي والعسكري كل الجوانب الأخرى وهو أمر مفهوم في زمنه ولكن آن الأوان ليلتفت العرب أيضاً إلى هذه الجوانب الأخرى التي لا تقل أهمية وإذا كان القرآن قد صدر في ترجمته الرابعة في اللغة العبرية منذ سنوات خلت على يد أوري روبين بعد ترجمات كل من هرمان ريكندورف ويوسف يوثيل ريفلين واهارون بن شماش فمن باب أولى وأحرى أن يهتم العرب هم الآخرون بشيء مما يكتب عن هذه اليهودية التي ارتبط تاريخهم بتاريخها منذ زمن الدعوة إلى أيامنا تحقيقاً لوصية الرسول الأعظم يزيد بن ثابت الأنصاري ورعاية لحقوق المعرفة إن نحن استعرنا عبارة الحارق المحاسبي بشيء من التصرف.

خاصة داخلية لا يمكن للقارئ من خارج هذه الفرقة أن ينتبه إليها أو يعتمد عليها لتمييز المقالات المعبرة عن جوهر الفكر الحسيدي في صياغته الحابادية وهو يعتبر أن هذه المهمة لم تنجز حتى الآن بالرغم من وفرة المادة والنصوص، ولهذا فقد وضع نصب عينيه سدّ هذا الفراغ فطفق ينظر في حصر المدونة وتدقيق الاصطلاحات ومناهج القراءة حتى يصبح النص الحابادي نصاً ميسور التناول وأطلق على هذه المقدمة تسمية البنية التحتية والمنهج ثم قسم الكتاب إلى أربعة أبواب انشغل في الأول منها بمسألة المدونة الحابادية باحثاً عن المعيار الذي يمكنه من القول أن هذا النص حابادي أم لا وهل يوجد ما يمكن اعتباره مدونة حابادية وانتهى إلى استخراج معيارين أولهما مكنه من تصنيف بعض الكتاب ضمن الدائرة الحابادية الداخلية والرسمية المعبرة عن جوهر فكر هذه الحركة ومجموعة أخرى من الكتاب عرفت باتصالها بهذه الحركة إلا أنه لا يمكن اعتبارها منشئة لنصوص داخلية بل هي نصوص تشبه نصوص البرايتا التلمودية بما هي «نصوص من الخارج» قد يمكن وصفها بأنها تتحدث عن الحركة الحابادية ولكنها لا تتحدث من داخلها ولعل من مميزات هذا الباب هو ما أعلن عنه الباحث من أنه قام لأول مرة في تاريخ الدراسات الحابادية بدراسة تشكل مدونة نصوصها وضبط حدودها وهو ما تعكسه قائمة الضبط اللبليوغرافي في مجالات التاريخ والفلسفة والاجتماع التي ضمها الكتاب وفي الباب الثاني تحدث المؤلف عما أسماه بمكونات المدونة الحابادية وهو في الحقيقية قد سعى إلى تنظيم المادة التي خلص منها إلى تحديد ملامحها وفق ما يمكن أن نسميه تجوزاً بأجناس الكتابة داخل المدونة الحابادية بصرف النظر عن المؤلف من هو؟ وانتهى إلى تقسيمها إلى ما يعرف بالتفسيرات **שיטת** والميامر **מאמרים** والبيئور **ביאורים**

متوسلة العاطفة وتلونات سبيلا إلى الوصول إلى معرفة الخالق والاقتراب منه. نشر هذا الكتاب في الأصل أطروحة جامعية بقسم الفلسفة اليهودية بجامعة بار إيلان المتخصصة في الدراسات الدينية اليهودية بإشراف البروفيسور دوف شفارتز المتخصص في الماشيحانية والفكر اليهودي الحديث والصهيونية الدينية ١ بعنوان مدونة التراث الحابادي مكوناته وسبل انتشاره باعتبارها أساس قراءة النص الحابادي ونشر في شهر أبريل المنصرم تحت عنوان: كيف نقرأ النص الحابادي؟ وقد قسم الكتاب إلى مقدمة وأربعة أبواب درس في المقدمة ما أسماه بالبنية التحتية ومسائل المنهج والغاية من البحث ودلالاته محددًا ما سماه «الخشية للنظرية وبنية البحث التحتية ومسائل البحث في الحسيديّة الحابادية ومناهجها مع سعي لضبط وجرد الكتابات التاريخية ذات الصلة بهذه الحركة من جهة الصحة والانتحال والتجانس ورد المؤلفات إلى أصحابها وأماكن توزيعهم الجغرافي والزمني وهي كلها من صميم البحث التاريخي الأولي الذي بدونه لا يستقيم بحث أكاديمي جاد وقد بين في هذا القسم أن الفرقة الحابادية هي فرقة فريدة ضمن التيار الحسيدي منذ الربّي شنيور زلمان الليادي المشهور بكنية «راشا» الذي أثرت أقواله وتعاليمه في الكثير من الأتباع والمفكرين الذين يتقاسمون والمؤسس الكثير من تعاليمه ولكننا نحتاج إلى التثبت إن كانوا فعلاً ينضوون تحت لافتة هذا المسمى الكبير الفرقة الحابادية أم هو مجرد التقاء موضوعي في بعض النقاط والمسائل ولذلك سعى المؤلف إلى ضبط الوسائل والمقاييس التي يمكن من خلالها تحقيق الانتماء إلى المقالة الحابادية دون غيرها من خلال استخراج ما يعتبره سننا في القول واصطلاحات

ولعل من أهم الكتب الصادرة هذه السنة في المجال الديني مساهمة الباحث أرئيل روط في دراسة التراث الحابادي نسبة إلى أحد فروع الحركة الحسيديّة اليهودية **חב"ד** التي ظهرت في القرن الثامن عشر على يد شنيور زلمان الليادي المشهور بلقب **Alter Rebbe** أو الشيخ المعظم في تقاليدنا. واليهودية الحديثة والمعاصرة تتوزعها ثلاثة فروع كبرى هي: اليهودية الإصلاحية بتياراتها الأساسية الثلاثة الليبرالي والمحافظة والتجديدي وتيار اليهودية العلمانية أو اللائكية بضرعية الإنساني واللائكي والتيار الثالث الكبير هو هذه اليهودية الأرثوذكسية وريثة اليهودية الربانية وهي المثلثة لجمهور اليهود كما يقول أجدادنا ممن انشغلوا بدراسة هذه الطائفة وتقع ضمنها هذه اليهودية الأرثوذكسية المغالية **Ultra orthodox** حديثة النشأة وهي الفرع الذي نشأ كرد فعل على التيار المنادي من داخل اليهودية بالاندماج في أوروبا وقبمها التي حملها عصر الأنوار في القرن الثامن عشر ملتزما تمسكا متشددا باليهودية التقليدية وأحكامها في المأكل والملبس الأسود وإرسال الذؤابتين حتى أطلق عليهم لقب أصحاب الأردية السوداء وتجنبوا ما أمكنهم ذلك الاختلاط بالآداب الدنيوية الأوروبية من المسرح والسينما والفضون بأنواعها في بداياتهم وأنزلوا المرأة منزلة هامشية بل ودونية في نظامهم وفي داخل هذه اليهودية الأرثوذكسية المغالية نشأت الفرق المعروفة بالحسيديّة أو الحسيديم بمعنى الأتقياء أو الورعين في اللغة العبرية والحريديين واللبوبافيتشين أو الحباديين الذين خصص لهم الباحث أرئيل روط أطروحته الجامعية هذه ويعرف بعضهم في إسرائيل باسم المتغديم وهم المعارضون للتيار الحسيدي **ד'רוט**. والحسيديّة في أصولها الأولى تدعو إلى تغليب القلب والفرح والابتهاج





في أقسام الدراسات الدينية حول قضايا أساسية يمكن اعتبارها اليوم جوهر مساهمة هذه الحركة في التفكير الفلسفي والأخلاقي من مثل مسائل الحرية الفردية والمسؤولية الفردية والصلات بين التصوف النظري والطرقى وغيرها من المسائل المرتبطة بالفلسفة الأخلاقية وأسسها الميتافيزيقية وهو ما تعكسه تسمية هذه الحركة بحباد اختصاراً للأحرف الثلاث العبرية المكونة لمفاهيم ثلاثة هي الحكمة والفهم والمعرفة «**חכמה בינה ודעת**» منذ زمن المؤسس الأول شنيور زلمان في كتابه المشهور اختصاراً «**בתניה**» وصولاً إلى الزعيم الروحي الذي ترك أكبر الأثر في أتباعه بعد وفاته.

إن هذه المدرسة الحابادية مهمة على أكثر من صعيد بالنسبة للعرب المعاصرين فهم يحتاجون أن يفهموا هذه الفسيضة الدينية اليهودية خصوصاً بعد ما عرف ما يسمى بالصحة الدينية **החזרה בתשובה** أو الحازاره بتشوفا بحسب الاصطلاح الديني الرائج والتي جعلت لهذه القوى الدينية منزلة في توجيه الرأي العام اليهودي فالزعيم الروحي مناحيم ماندل شنيورسون زعيم حركة حباد ساهم فكره السياسي وبعض كتاباته في تشجيع الاستيطان والتشريع لهم من منطلق ماشيخاني صرف ودعا إلى رفض المفاوضات التي تؤدي إلى «التنازل» عن أرض إسرائيل إلى العرب والفلسطينيين وهو ما يجعل من الحباديين رديفاً لكل القوى الأخرى المناهضة لأية تسوية قانونية عادلة للصراع في فلسطين بالرغم من الخلافات الأساسية التي تفصله عن الفكر السياسي للصهيونية الدينية التي أرسى دعائمها الربى حاييم كوك وهي مواقف ليست منفصلة عن هذا التراث الحريدي الذي سعى الباحث إلى ضبطه وكشف محتواه وطرق قراءته وهو أمر لا يهتم اليهود وحدهم في نظري بقدر ما يهتم العرب أيضاً المنشغلين بهذا الفكر اليهودي في تجلياته المعاصرة.

إن اليهودية المعاصرة بتياراتها الثلاثة الكبرى تحتاج من العرب مزيداً من الاهتمام والتخصص وبذل الجهد والمال والوقت لعلنا نحقق بعض ما عجز ابن حزم الأندلسي عن تحقيقه في رسالة مليئة بالشكوى والألم في رده على ابن النغيلة اليهودي ذات زمن أندلسي ضائع...

**عنوان الكتاب: كيف نقرأ التراث الحابادي؟**

**المؤلف: أرئيل روط أستاذ الفكر اليهودي بجامعة**

**بار إيلان**

**الناشر: المطبوعات الجامعية جامعة بار إيلان**

**سنة النشر: أبريل 2017**

**عدد الصفحات: 300 صفحة**

**اللغة: العبرية**

**\* أستاذ الدراسات اليهودية: الجامعة**

**التونسية**



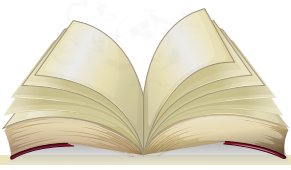
الحسيدية.

إن هذا الكتاب الذي يبدو في ظاهره كتاباً كتبه يهودي إلى يهود من أمثاله مهم على أكثر من صعيد بالنسبة إلى الباحثين العرب المتخصصين في مسائل الفكر اليهودي الحديث والصلات المفترضة والممكنة بين التراث الحسيدي الذي بدأ منذ أيام الدولة العثمانية مع الزعيم الروحي «بعل شم طوف» والفكر الصوفي الإسلامي في تجلياته العربية والفارسية وهو ما كان محط اهتمام الباحثة فاليري ميشال في كتابها عن التصوف والحسيدية وهو أيضاً يساعد المشتغلين العرب والمسلمين عموماً على تمثيل إشكالية التصورات المشيخانية في اليهودية والإسلام وهي من أعقد القضايا كما أبان عنها النقاش حول الإسلام الناشئ بين أنصار المدرسة الأنجلوسكسونية وما رد به عليهم الباحث فراد دونار حول هذه المسألة بالذات ولا شك أن التيار الحسيدي في نسخته الحابادية اللوبافيتشية ذو صلة متينة بهذه الإشكالية إشكالية الماشيخانية في الفكر اليهودي وربما نجد في صلتها بهذه المشيخانية ما يفسر من بعض الوجوه موقفها من الملتبس من الحركة الصهيونية والصهيونية الدينية بالأساس التي حاول فقيد الدراسات اليهودية رشاد عبد الله الشامي أن يكتب في بعض ملامحها في كتابه المهم حول القوى الدينية في إسرائيل.

إن الحركة الحابادية المتفرعة عن الحسيدية هي نموذج للتدين الشعبي الحسيدي الذي حاول أن يرتقي شيئاً فشيئاً بعد جيل التأسيس إلى شيء من عقلنة الممارسة الدينية الشعبية خصوصاً مع الربى شنيور والربى شنيورسون في اتجاه عدم التهوين من الفكر من أجل الجوانب العاطفية والانفعالية التي اشتهر بها التيار الحسيدي الأم وهو من حيث الزاوية مما يمكن للدراسات المقارنة بين الأديان والإسلام واليهودية تحديداً أن يكون مادة للتفكير والبحث

أو الشروح والرسائل ايغيريت **איגרת** والكتابات العامة **מכתב כללי** وثانيهما هو النصوص المكتوبة المعروفة باسم **הנחה** وأردف ذلك بطائفة من أعلام المذهب ومؤلفاتهم وسعى من خلال التدقيق في البعد التاريخي إلى التمييز في ما بينهما بين نوعين أولهما هو ما يمكن تسميته بالنصوص الشفوية أو ذات المصدر الشفوي وأخرى نصوص مكتوبة من أول الوضع وليست استتباعاً لمصدر شفوي سابق وهو أمر اعتبره من اجتهاداته في دراسة الفكر الحسيدي الحابادي أما في الباب الثالث الذي عنوانه بانتشار أو توزع المدونة الحابادية فقد درس كيفية انتقال المعارف من زعيم الفرقة إلى الأتباع وتأثيرها فيه فيما بعد معرفة وسلوكاً وحاول أن يجد صلة بين نمط انتقال هذه المعارف وتوزعها وبين نمط التأثير المرجو فميز بين المقام الهدف أو المتلقين باعتبارهم هدفاً لبعض المعارف لا تنتقل إلى الأفراد فحسب يختصون بها دون الجماعة ويتلقونها أحياناً بشكل مكتوب يدوياً وخطي مباشرة لاستعمالهم الخاص وبالتالي لم يكن لها تأثير كبير في ملامح الفكر الحسيدي الحابادي وتطوره إلا لما حين تتحول أحياناً إلى نص موزع بين الجماعة وميز المؤلف تبعاً لهذا التقسيم الأولي بين صنوف ممن يتولون نقل هذه المعارف فهم أصناف منهم من يسمى بالحوزر **חוזר** أو والمدريخ والمشفيع **מדריך ומשפיל** ثم توقف عند المؤسسات الحابادية التي تتولى هذه العملية المعقدة من مثل مؤسسة يشيفات تومخي تميم **ישיבת תומכי תמימים**.

وفي الباب الرابع والأخير الذي عنوانه بنموذج قراءة النص الحابادي اهتم بالإجابة عما أشار إليه في الباب الأول وهو كيفية الخلوص إلى منهج نقدي في دراسة النص الذي تنتجته هذه الحركة المنضوية تحت جناح الحركة الحسيدية الأم فاعتمد ما بدا له أنه نموذج متعدد الأبعاد أو المنهج المركب **רכיבי המודל לקריאת טקסט של חב"ד** من خلال وضع النص في سياقه من حيث هو نتاج مفكر فرد أولاً ومن حيث هو نتاج تلاقح أفكار بين مفكرين آخرين في الأوساط الحابادية بكيفية تساعد القارئ المبتدئ أو المهتم بمجال البحث في الفكر الحابادي بالمراوحة بين السياقين وسمي هذا المنوال أو النموذج بالنموذج الإزائي أو المقارني وهو ما سمح له بتبين ما هو أساسي في فكر الجماعة وما هو من التوابع أو الإضافات أو الاجتهادات منتهياً في جزء الكتاب التطبيقي إلى الاشتغال عملياً على نصوص بعينها لكبار مفكري هذا التيار متوقفاً عند المفاهيم حتى يتخذها الباحث نبراساً له في تحليل فكر التيار الأساسي في اليهودية المعاصرة ولم يفت الباحث في الأخير أن يشير إلى أنه قدم دراسة فريدة لم يسبق إليها في بيان المفاهيم والأسس التي تقوم عليها التأملات الحابادية طوال أجيال عديدة مساعداً بذلك كل من يرغب في تمثيل الجهاز المفاهيمي والنظري الذي تدور فيه الحابادية



# القيصر والسلطان: الإمبراطورية العثمانية بعيون روسية .. ليفيكتور تاكي

أحمد م الرحبي \*

خاضت روسيا وعلى مدى تاريخ طويل حروباً مع تركيا أكثر من أية دولة أخرى. وإذا استثنينا الحروب (التي هي لقاء في نهاية المطاف وإن كان بشكل عنيف) التي تقدر بحرب واحدة كل ١٥ - ٣٠ عاماً منذ نهاية القرن السابع عشر، فقد تنوعت الاتصالات بين البلدين ومنها تبادل السفراء والبعثات العلمية والرحلات الاستطلاعية. هذه العلاقة المشتعلة مردها طموح الإمبراطورية الروسية الصاعدة لمنافسة الإمبراطوريتين المهيمتين في ذلك الوقت: العثمانية والنمساوية وأيضاً متأثرة الدولة العثمانية في الحد من التقدم الروسي ومحاولة التحكم بضبط واحتواء العلاقة معها.

عبد المجيد نفسه. فحينما اقترب مينشيكوف من مدخل القاعة وجد أنه قد تمت إعادة بنائه ووضع بطريقة تجبر رجلاً طويل القامة كمينشيكوف على الانحناء للسلطان ووزرائه. وقد تدبر مينشيكوف مخرجاً سريعاً من هذا المأزق وحزم أمره على عدم الامتثال لما دبر له. أدار ظهره إلى الباب وأحنى ركبتيه وكأنه يربض عليهما ودخل إلى الاجتماع» (ص ٢٩). وتجدد الإشارة هنا إلى أن المؤرخين أجمعوا على إدانة السلوكيات الاستفزازية للجنرال مينشيكوف، مبعوث القيصر الروسي نيكولاي الأول، إذ ساهمت برأيهم في تفكك العلاقات الروسية التركية واندلاع حرب القرم.

في الفصل الثاني «حكايات من الأسر» يجمع الباحث ويحلل أبرز السرودات حول عمليات الأسر العثماني التي وصلتنا عبر التاريخ. بادئ ذي بدء يقوم المؤلف بسرد تقاليد الأسر في تركيا والتغيرات التي واكبتها عبر التاريخ. وقد قصد المؤلف هذه المتابعة التاريخية كمقدمة لقراءة ظاهرة برزت في المجتمع الروسي منذ بداية تماسه مع تركيا. فالأسرى الروس الذين أفلتوا من الأسر التركي وعادوا إلى بلادهم رجعوا محملين بقصص وحكايات ما لبثت أن غدت الشغل الشاغل للشاعر الروسي، ومع الوقت تحولت حالة الأسرى وقصصهم إلى ظاهرة أقلق الكنيسة وأثارت شكوك رجال الدين في أولئك الهاربين خشية أن يكونوا قد اعتنقوا الإسلام سرا وبأن وجودهم بين المسيحيين البسطاء سيؤثر في عقيدتهم. بيد أن هذه النظرة المهجوسة بالدين تجاه الأسرى العائدين ما لبثت أن تغيرت حينما استبدل المجتمع الروسي كسوة الكهنوت بقبعة العلمانية في القرن الثامن عشر، فتحولت النظرة إلى الأسرى الهاربين من الريبة إلى الشفقة.

تاريخ العلاقات الروسية التركية منذ بدء التبادل الدبلوماسي بين البلدين في أواخر القرن الخامس عشر وحتى حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) التي تغيرت بعدها طبيعة التوترات الجيوسياسية في المنطقة، حيث وجدت روسيا نفسها، وبعد أن كانت تقيم توزناتها الثقافية والهوياتية باعتبارها جزءاً من العالم الأوربي المتحضر، وجدت نفسها في مواجهة تحالف أوروبي قام ضدها. ويبين المؤلف مدى التطور الذي خضعت له خلال هذه الفترة التاريخية فكرة الروس عن الإمبراطورية العثمانية جنباً إلى جنب مع تعقد علاقتها (أي روسيا) مع أوروبا. اختصاراً فقد بدأت روسيا تعي ذاتها وتلمس ثقافتها القومية لحظة وقوعها بين الحضارة الشرقية ممثلة بتركيا والحضارة الغربية التي تمثلها أوروبا، وما تمخض عن ذلك من إعادة تشكل الهوية الروسية الحديثة.

في الفصل الأول «على عتبة السعادة» يسرد الباحث الجانب الثقالي من العلاقات الدبلوماسية بين روسيا والدولة العثمانية. ومن الأشياء التي حملت دلالة خاصة في هذا السياق أنه، ومنذ أول اتصال رسمي بين البلدين في أواخر القرن الخامس عشر، كان الحكام الروس وممثلوهم يضعون أنفسهم في مكانة متساوية مع السلاطين الشرقيين، على خلاف البروتوكول العثماني الذي يُنكر مبدأ المعاملة بالمثل والمساواة في العلاقات مع القوى السياسية الأخرى، وقد أسفر هذا التناقض الثقالي عن مواقف وصلت إلى حد الابتذال ومنها ما أورده الكاتب عن حضور السفير الروسي مينشيكوف لاجتماع في الديوان العثماني. يقول عن ذلك: «كانت فضيحة جديدة تمثلت في زيارة مينشيكوف لاجتماع الديوان السلطاني وكان يرأسه في تلك المرة السلطان

ثمة شواهد كثيرة تتناثر في صفحة التاريخ تشير إلى الندية التي طبعت العلاقة بين تركيا وروسيا، حيث كل خطوة يقوم بها أي من الطرفين تجاه الآخر تتضمن رغبة أو محاولة منه لكسب نقاط قوة على حساب الطرف الآخر، حتى وإن توشحت بمظاهر الصداقة مثل إقامة أول سفارة روسية في القسطنطينية التي تُحسب كخطوة روسية رمزية لاستعراض مكانتها بين القوتين الكبيرين آنذاك، والدليل أن تمثيلها الدبلوماسي ذاك ظل منصة لخلافات متكررة وقد حفظ التاريخ الكثير من تفاصيل تلك الخلافات ومآلاتها.

ثمة أيضاً الغارات التي كان يشنها تثار القرم (وهم من القومية التركية) على الأراضي الروسية وإيقاع الأسر بسكانها ومن ثم بيعهم للدولة العثمانية بما عرف بالرقيق الأبيض أو السلجوقي (أي السلافي)، وكان البعض منهم يتمكنون من الفرار والعودة إلى ديارهم وفي جعبتهم قصص ومشاهدات عن الحياة في الدولة العثمانية ما شكل مصدراً من مصادر تاريخ العلاقة التركية الروسية، فضلاً عن ستة حروب خاضها الطرفان فيما بينهما من القرن الثامن عشر وحتى القرن التاسع عشر، حيث أفاد الضباط الروس من تلك المواجهات واكتسبوا خبرة عن الإستراتيجية الحربية عند الأتراك. استناداً إلى هذه المصادر والمراجع التي احتوتها يوميات ومذكرات العسكر المنخرطين في الحملات الروسية على تركيا، والقصص المنشورة للأسرى العائدين، والمراسلات الدبلوماسية، وأوصاف الرحلات الاستكشافية وغيرها من الرحلات، يحلل فيكتور تاكي، عضو مركز البحوث التاريخية في المدرسة الروسية العليا للاقتصاد، صورة تركيا في عين غريمها الروسي.

تعد هذه الدراسة أول محاولة منهجية من نوعها لوصف



التاريخ وانتقلت معها مقاليد الهيمنة العالمية من الضفة الشرقية للعالم إلى الضفة الغربية، وشهدنا في هذه الحقبة زوال الحكم العثماني جنباً إلى جنب مع مواجهة روسيا لواقع جديد تمثل في أول مواجهة حقيقية مع ائتلاف القوى الغربية، الأمر الذي كبح من جماح روسيا في التحول إلى بلد أوروبي.

يشار إلى أن مؤلف هذا الكتاب، وبخلاف التحزب الذي أظهره بعض المؤرخين الغربيين باعتبارهم حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية حرباً دينية كما جاء في كتاب «الصلبية الأخيرة» (Figs O. Crimea: The Last Crusade. London; New York: Penguin, 2011) بخلاف ذلك التزم الباحث الروسي موقفاً عقلانياً في قراءة التاريخ مؤكداً على أنه «لا يجب علينا أن نبالغ في دور الدين في تاريخ العلاقات بين روسيا والإمبراطورية العثمانية (...) أما الذين يحاولون تقديم هذا الصراع كبديل أرثوذكسي لاحق للحروب الصليبية الكاثوليكية في العصور الوسطى فلن يجدوا تفسيراً لطبيعة الحملات الأولى لقياصرة موسكو ضد الدولة العثمانية، فمع أنهم كانوا متعصبين دينياً إلا أنهم كانوا أقل عدائية تجاه العثمانيين من القياصرة اللاحقين الذين تراجع في زمنهم المحرك الديني عند النخبة الروسية» (ص ٢٣).

لا يني ميل بعض الكتاب الغربيين في التحامل على التاريخ العثماني يضطرد ويحتد لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة، كما ازدادت النظرة إلى تركيا باعتبارها مثالا لنموذج «الاستبداد الآسيوي» الفاسد والمحكوم عليه بالفشل، ازدادت تمركزاً في الوعي العلمي الغربي. وقد عمد الكاتب الروسي فيكتور تاكي إلى تفنيد هذا النوع من الأحكام وقدم في كتابه هذا أمثلة على قابلية الدولة التركية على الحياة المنظمة رغم الخسائر التاريخية التي تكبدتها وعلى تكيفها مع المراحل التاريخية الجديدة التي يشهد فيها وطيس المنافسة على الهيمنة، بل ومقدرة تركيا على إثبات نفسها كعامل مؤثر في مسار التغيرات العالمية.

الكتاب: الملك والسلطان (الإمبراطورية العثمانية بعيون روسية).

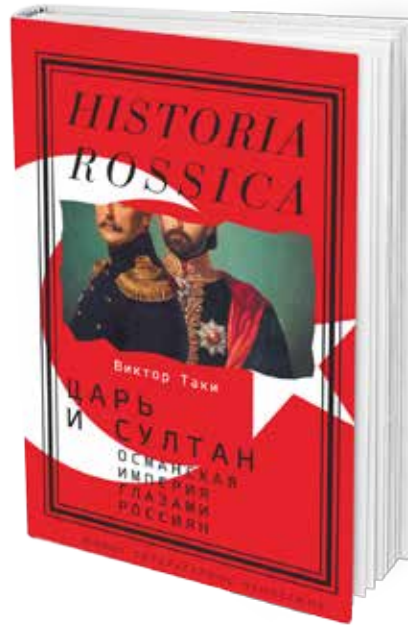
المؤلف: فيكتور تاكي.

الناشر: الاستعراض الأدبي الجديد. موسكو ٢٠١٧

اللغة: الروسية.

عدد الصفحات: ٣٢٠ صفحة.

\*كاتب عماني



إحياء الإمبراطورية الرومانية تحت راية حفيدها الثاني قسطنطين. بيد أن المؤلف لا يكتفي بسرد هذه الرؤى الطوباوية وإنما يأخذنا إلى حقائق تاريخية وميدانية أظهرت التركيبة المعقدة للدولة العثمانية وعلاقاتها من الشعوب التي هيمنت عليها. فحسب مذكرات ومراسلات العساكر الروس يمكن استبيان قوة التحالف أو الارتهان الذي عقده الباب العالي بالنخبة اليونانية، فها هو قائد الأسطول الروسي الأمير ألكسي أورلوف يعبر عن إحباطه الشديد لقمع الانتفاضة اليونانية في الدولة العثمانية، فيصف أولئك المسيحيين اللذين يعتقدون بعقيدته الأرثوذكسية (أي اليونانيين) بـ «شعب مخادع ومتقلب وجبان ذي ميل شديد إلى المال». (ص ٢٢٥). ويقسم فيكتور تاكي نظرة الروس التاريخية إلى الإغريق إلى قسمين أو نموذجين: الأول يرتبط بالبطولة والشجاعة الأسطورية والثاني نموذج العبد اللئيم. ويبدو أن هذا النموذج الأخير كان متاحاً أكثر من غيره إبان مواجهة الروس للأتراك العثمانيين وهو ما ظل سائداً فيما لحق من أزمان.

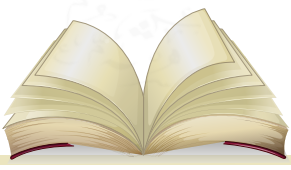
سياق آخر قوي انكشف للروس في تلك الفترة وهو العلاقة التي ظلت متينة مع الصرب الذين لم يعتنقوا الإسلام كالسلافيين البوسنيين كما لم يستسلموا لإغراء الكاثوليكية مثلما فعل إخوتهم الكروات وظلوا أوفياء للعقيدة الأرثوذكسية.

يضع الكاتب النقطة الأخيرة لبحثه التاريخي والسيكولوجي المتعلق بالانفتاح والمواجهة بين إمبراطوريتين تاريخيتين كبيرتين، يضعها عند نشوب حرب القرم. فقد دشنت هذه الحرب فصلاً جديداً في

في الفصل الثالث من الكتاب الذي جاء تحت عنوان «الحملات التركية»، وبناء على التجارب الحية لضباط الجيش الروسي في حروبهم مع تركيا، يستعرض المؤلف ويدرس دور تلك التجارب في تشكيل رؤية الضباط الروس والأحداث التي اختبروها باحتكاكهم بالأتراك. ويرى المؤلف أن نبرة القادة الروس في تلك الفترة لم تخل من التباهي والتفوق الحضاري، فالعساكر الروس محسوبون من ضمن الجيوش الأوروبية التي تتمتع بإعداد عال وإتقان للفنون العسكرية فيما يقاتل العثمانيون باندفاع وعشوائية. وهكذا ووفقاً لما ورد في كتاب بعنوان «الاستعراض العسكري للإمبراطورية التركية» وضعه قائد المدفعية الروسية أندريه بوشكين عشية الحرب الروسية التركية (١٨٢٨-١٨٢٩) نقرأ الآتي: «غالباً ما يبدي الأتراك شجاعة كبيرة في بداية المناوشات العسكرية، وهم يحملون على الدوام الكثير من اللافات والرموز ويملاؤن الأرض ضجيجاً. مع ذلك، تجد أن الشعور بالعار سرعان ما يقع في قلوبهم عند أول خسارة يتكبدها، ثم فجأة تراهم يغرقون في الفوضى ويسرعون في التقهقر تماماً مثلما تسرعوا في الهجوم» (ص ١٣١). ويرأي هذا القائد فإن نكوص الأتراك عن ميدان المعركة ليس إلا نتيجة للعشوائية التي تطبع هجماتهم والتي غالباً ما تتم من غير إحاطة بالتضاريس ومواقع العدو. وبذلك فالصيغة المثلى للتفوق على العثمانيين في ميدان المعركة هي مزيج من الصمود والمثابرة عند أول صدام معهم. ويكشف هذا الفصل من الكتاب عن خصوصية التجربة التي خاضتها الجيوش الروسية في لقاءها مع الجيوش العثمانية، كما يحيط بالقضايا اللوجستية والمناخية وغيرها من الصعوبات التي واجهتها.

في فصل «شعوب الإمبراطورية» يلقي المؤلف الضوء على الشعوب التي عاشت في ظل الحكم العثماني كالبلغار والصرب واليونانيين والرومانيين وكيفية تعاظم هذه الشعوب مع حكم الباب العالي ومدى خنوعهم له أو انتفاضهم عليه. إلى جانب هذا يصوغ المؤلف السؤال الذي طالما شغل الروس حول هذه الشعوب اللاتينية والسلافية وحول ارتباطهم بأعراقهم الأصلية ورغبتهم في ترميم هويتهم وبناء مستقبلهم.

إن أوثق وأعمق ارتباط ثقافي بين روسيا وأوروبا هو انجذاب الروس للعصر الهلنستي، وقد تجلى ارتباطهم وانجذابهم ذاك بتشجيع الهجرة اليونانية إلى روسيا ودعم العلاقات مع اليونانيين العثمانيين، فضلاً عن فكرة استمرارية الإمبراطورية البيزنطية من خلال موسكو وحلم الإمبراطورية الروسية إكاتيرين الثانية في



# حرب بالوكالة.. لنيكولاي ستاريكوف

## فيكتوريا زاريتوفسكايا \*

«المعتدي دائماً مُحب للسلام» بهذه المقولة التي تعود إلى كارل فون كلاوزفيتز (١٧٨٠ - ١٨٣١)، وهو قائد عسكري ومنظر ومؤرخ حربي روسي، التحق بالخدمة في الجيش الروسي بعد هزيمة بروسيا من قبل نابليون، ويُعتبر كتابه «عن الحرب» من كلاسيكيات الفكر العسكري) بهذه المقولة المحيرة ظاهرياً، يبدأ الصحفي والسياسي الروسي المعروف نيكولاي ستاريكوف كتابه الجديد «حرب بالوكالة». أما الفحوى التي تضمنتها المقولة فهي أن الحرب لا تقوم لذاتها، فغرضها الاستيلاء على كل ما يُمكن الاستيلاء عليه، ومن مصلحة المعتدي الحصول على ما يُريده بأقصر الطرق وبلا احتراب مع أحد، كما يفضل الدخول إلى البلاد الأخرى من غير مقاومة أو إراقة دماء. في هذا السياق الفكري الذي تتعدد مشاريعه وتمتد أفرعه إلى السياسة والاقتصاد والثقافة، يتفرغ ستاريكوف لبحثه الجديد.

حدث في أوكرانيا من اتخاذ إجراءات لمحاربة اللغة الروسية). لم يُطع برئيس البلاد الشرعي (كما جرى في أوكرانيا) لجر البلاد إلى حرب أهلية. ما حدث هو قيام مستوطنو المستعمرات بإطاحة سلطة جورج الثالث وقضي الأمر بذلك» (ص ١٦-١٧).

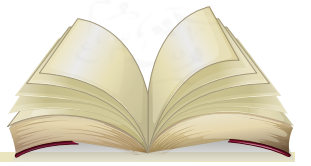
وفي تحليله لمسار التاريخ العالمي يشير الباحث مراراً وتكراراً إلى تواريخ أحداث كبرى وقعت في مختلف القارات وتبدو من الوهلة الأولى مستقلة عن بعضها البعض، غير أن الكاتب يجمعها في حزمة متشابكة من المكائد السياسية. يقول في هذا الصدد: «إن تدبير المآزق للعدو وإحاطته بالمشاكل عن طريق أيدٍ أخرى لهي وسيلة من أكثر الوسائل رواجاً في السياسة العالمية. إن القائد الذكي يلجأ إلى استنزاف طاقة العدو ويجد مصالحةً في حياكة المؤامرات في البلدان المجاورة لعدوه. أفضل مثال (تاريخي) على ذلك سياسة الإمبراطورة الروسية إكاتيرين الثانية. ولنسأل أنفسنا، متى انتهت حرب استقلال الولايات المتحدة؟ في عام ١٧٨٣. ومتى ضمت إكاتيرين شبه جزيرة القرم إلى روسيا؟ في عام ١٧٨٣. هل حدث ذلك صدفة؟ قطعاً لا. ففي تلك اللحظة، عندما كانت الدول العظمى تتصارع فيما بينها ولم تستطع مساعدة الأتراك ضد روسيا، قررت الإمبراطورة ضم القرم إلى بلادها» (ص ١٩). الأمر شبيه لما جرى عام ٢٠١٤ حين لم تتوان روسيا في اهتبال الفرصة التاريخية لاستعادة ما فقدته من قبل، أي شبه جزيرة القرم. وبرأي المؤلف أن أمراً مثل هذا لم يكن ليحدث لو أن الرئيس الشرعي يانوكوفيتش ظل على رأس حكومة كييف، وبأن الاستفتاء بانفصال القرم لم يكن ليتم ولا كان لروسيا أن تجد مدخلا واحداً لإلحاق شبه جزيرة القرم إلى خارطتها لولا انقلاب كييف. والحال

الخارجية»، «كيف ناضل المجريون من أجل قناة السويس وهم يجهلون ذلك»، «كيف أصبحت بولندا حليفاً لهتلر وما ترتب عن ذلك»، «كيف عمل الاتحاد السوفياتي بالوكالة»، «فهم ستالين وكيف ساعد لندن في قتالها ضد هتلر». ومن غير اكتراث بالتسلسل الزمني للأحداث، شكل المؤلف حلقات وصل بين أحداث تاريخية معروفة وأخرى تجري في حاضر أيامنا، لا سيما في أوكرانيا وبعض مناطق الصراع في الشرق الأوسط كليبيا وسوريا.

حظيت أزمة أوكرانيا التي اندلعت عام ٢٠١٤ بالاهتمام الأكبر من المؤلف. ومن بين المقاربات التي استخدمها لوصف الأحداث هناك، مقارنته بين الأزمة الأوكرانية وظروف تشكل الولايات المتحدة وانفصالها عن التاج البريطاني. يقول في ذلك: «من وجهة نظر القانون الدولي فإن ممارسات سكان مدينة دونباس الأوكرانية عام ٢٠١٤ أكثر شرعية من ثورة أتباع الملك جورج الثالث. لماذا؟ لأن الانقلاب الذي حدث في العاصمة كييف في فبراير من عام ٢٠١٤ ما هو إلا انتهاك صارخ لدستور البلاد، كما أن تعيين الحكومة الجديدة تجاوز سافر لقانونها الأساسي واغتصاب علني للسلطة. لم تكن ثمة شرعية لحكومة كييف الجديدة وعدم الخضوع لها كان حقاً لسكان دونباس. أما ما يتعلق بثورة سكان المستعمرات البريطانية قبل قرون ضد الملك الشرعي فهي باطلة إذ لم يشك أحد في شرعية اعتلاء الملك العرش البريطاني. في مدينتي دونيتسك ولوهانسك الأوكرانيتين انتفض الناس ضد المقتصبين وفي أمريكا ضد السلطة الشرعية. الانتفاضة في أمريكا تعود إلى أسباب اقتصادية بحتة، ولم يقم أحد بمنع الناس من التحدث والكتابة باللغة الإنجليزية (كما

لا يناقش هذا الكتاب مُفردات الحرب كالقتال وتنفيذ الهجمات وتكبد الخسائر بشكلها التقليدي، فحينما يدور النقاش عن صراع القوى الكبرى، فإن وتر التنافس بمفهومه الكلي هو الذي يكون مشدوداً ومسيطراً. بل كلما زاد وطيس المواجهة التنافسية في هذا النوع من الصراعات كلما قلّت فرص المواجهة المباشرة بين أطرافه وازدادت ندرة. فإذا ما طُفح الكيل بين المتنافسين ورشحت الرغبة في التصادم ونشب المخالب، يوكل ذلك إلى أيدٍ وسيطة تقوم بدور الوكيل الحربي. يقول ستاريكوف: «الحرب مطلقة. ولم يعرف التاريخ لحظة توقفت فيها الحرب. والفكرة الحمقاء القائلة بنهاية التاريخ والتي أطلقها موظف وزارة الخارجية الأمريكية فرانسيس فوكوياما، لم تتحقق ولن تتحقق أبداً، أما الأعمال العسكرية فهي جزء ضئيل مرئي من جبل الجليد. وحينما لا تطلق المدفعية مقذوفاتها، تأتينا القذائف من الإرهابيين، وعندما يركن الجنرالات إلى الصمت يتحدث الاقتصاديون ورجال الأمن ويتناقشون من أجل الحصول على أدوات لخلق الأيدي التي تحقق أهداف ساسة بلدانهم» (ص ١١-١٠). ويعد هذا الإجراء الذي يتحكم بالهيئات والمنظمات الدولية ويدفعها إلى العمل لمصلحة دولة بعينها، فيما تظن (أي المنظمات الدولية) أنها تؤدي وظيفتها وتعمل وفق القواعد والشروط التي تأسست عليها، يعد ذلك من أرفع فنون السياسة الدولية.

يحلل المؤلف أحداث التاريخ العالمي التي تم فيها تطبيق آلية الاستعانة بوكلاء خارجيين، وأفرده لذلك فصلاً من كتابه جاءت تحت عناوين موحية وهي من قبيل: «عن جمهورية تكساس والانفصاليين البلجيكين»، «أدولف هتلر بصفته أداة للسياسات



كذلك فإن المحصلة النهائية لهذا تفيد أن شبه جزيرة القرم عادت إلى روسيا بأيدي الآخرين: وزارة الخارجية الأمريكية والمتطرفون الأوكرانيون.

أليس هذا هو فن السياسة بعينه؟

المثال الآخر للحرب بالوكالة يأتي به الكاتب من أحداث ثورة المجر وأزمة قناة السويس عام ١٩٥٦؛ الحدثان اللذان كانا يتطوران جنباً إلى جنب ويوما بيوم. برأي المؤلف فإن انتفاضة بودابست التي انطلقت عام ١٩٥٦ ضد القوات السوفيتية لم تكن أكثر من ستار غربي لأجل الاستيلاء على قناة السويس. يقول الباحث: «كانت الحاجة تدعو لإثارة التمرد في بودابست ووضع الاتحاد السوفيتي في حالة حرب حتى لا يكون بمقدوره الرد على الغزو الغربي لمصر» (ص ١٣١).

يقرب المؤلف من معظم الأحداث التاريخية الغامضة للقرن العشرين، وهي أحداث لا يمكن إخضاعها لشرح منطقي إلا بقبول نظرية الأيدي الخارجية في السياسة العالمية. ومن أهم الأحداث التاريخية للقرن الماضي هجوم هتلر شبه الانتحاري على الاتحاد السوفيتي، وهو الهجوم الذي رسم بداية نهايته وردم كل نجاحاته السابقة. ولناقشة هذا المفصل التاريخي، خصص الكاتب فصلاً عدة من كتابه، ورسم صورة واسعة للأحداث العالمية قبل الهجوم الألماني على الاتحاد السوفياتي. وفي الخلاصة وجد أن السبب الرئيس الذي دفع هتلر لفتح الجبهة الشرقية ضد الاتحاد السوفيتي هو انفلات الوضع وخروج ألمانيا من سيطرة الغرب. كان هتلر يتأهب لغزو الشرق الأوسط لسد حاجته من النفط والموارد الأخرى، بيد أن عملية من تلك النوع، أي وصول القوات الألمانية إلى العراق وإيران والهند كان يعني انقطاع النفط ومشتقاته عن بريطانيا، وهذا ما لم يكن الغرب، ممثلاً في بريطانيا العظمى، مستعداً لمواجهة. وقد استخدمت شتى الطرق لتجنب ذلك السيناريو وتم الضغط على هتلر بالعدول عن فكرة إرسال قواته للشرق الأوسط وإغرائه بالجمهوريات السوفيتية الأقرب جغرافياً والغنية بالنفط.

ومرة أخرى يعود ستاريكوف إلى عقد مقارناته بين الأحداث التاريخية وما يجري اليوم على الساحة الدولية فيربط بين انبعاث النازية في ألمانيا والأحداث الأوكرانية الأخيرة. يقول: «هل من عاقل يصدق أن بلدان الديمقراطية الغربية كانت غافلة عن غرابة الحملة الألمانية الانتخابية التي اعتقل

وحسب، وإنما أيضاً تنال في أي منطق سليم، فيعود إلى الضغوط التي تستخدمها الولايات المتحدة على أوروبا التي تريدها خادماً طبعاً لا حليفاً قوياً. إذن فالضغط الداخلي الذي تواجهه أوروبا أمر مصطنع يدفعها لتكون أكثر اعتماداً على الولايات المتحدة، وأية محاولة للعب الانفرادي منها وإبراز الشخصية الاستقلالية فيواجه فوراً بالهجمات الإرهابية في عواصمها» (ص ١٩٣).

يشير المؤلف - من بين ما يثيره من قضايا داخلية ارتبطت بفترة الاتحاد السوفيتي وروسيا الجديدة - مسألة تتعلق بقصور النظر من قبل بعض الرؤساء فيما يتعلق بنقد الذات والاعتراف بالخطيئة. فبرأيه أن أسوأ ما يمكن أن يرتكبه رئيس دولة ما هو الاعتراف بأخطاءه سابقه وطلب الصفح عما وقع، وهو الأمر الذي حدث أكثر من مرة في تاريخ الاتحاد السوفيتي وروسيا الجديدة. يقول المؤلف: «الاعتراف بالخطأ وطلب الصفح عنه أمر جيد بالنسبة للأفراد من العامة، أما بالنسبة للدولة فالاعتراف بالخطأ يعد ضربة كبيرة لوضعها ومثلية يستفيد منها منافسوها. ولهذا السبب لا يجاهر القادة الغربيون بخطايا بلدانهم (...) سوف لن تعتذر الولايات المتحدة عن إسقاط القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي في اليابان كما لن يطلب اليابانيون الصفح عن عملية بيرل هاربر (...) أما اتهامات خروتشوف لستالين فقد أشعلت فتيل الاضطرابات المجرية عام ١٩٥٦ والتي تلتها عواقب لا عودة منها. لقد أسس هجوم خروتشوف لسلفه المنطق التالي: ستالين الذي كان رئيساً للاتحاد السوفيتي مجرم، إذن فكل الذين أدينوا من قبله، ضحايا أبرياء، وإذن فالدولة التي يرأسها مجرم لا يمكن أن تكون هي الدولة التي خلصت العالم من النازية. فليسقط المجرمون (ومن معهم) إذن!» (ص ١٤٦-١٤٧). وبهذا أعطى الرئيس السوفيتي مبرراً لأعداء بلاده للنيل من عساكره في المجر، فني السياسة لا وجود لمذبح تُهْرَق فيه الخطايا ويقدم صكوك الغفران.

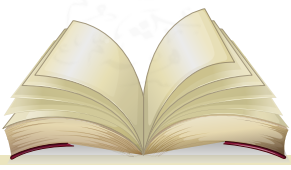
الكتاب: حرب بالوكالة.

المؤلف: نيكولاي ستاريكوف.

الناشر: إكسيمو/ موسكو ٢٠١٧.

اللغة: الروسية.

عدد الصفحات: ٣٥٢ صفحة.



## «الطوافة»..

# إشراف نادر هاشمي وداني بوستل

محمد الشيخ \*

ألا ما أحوجنا إلى ابن جني - وكان من أعلم علماء العربية بالاشتقاق والتوليد والنحت؛ وهي من أهم الموارد التي ترفد اللغة العربية بمفاهيم الجديدة - حتى نستلهم منه كيف نشقت من لفظ «الطائف» فعلا أو مصدرا يفيد دلالة تحويل قوم إلى طوائف! أهوياً ترى لفظ «التطويف» أم «التطنيف» أم «الطوافة» أم ماذا؟ فقد انتلف لفيظ من علماء السياسة والمؤرخين وعلماء الأنتروبولوجيا ودارسي الأديان بغاية فحص هذه الظاهرة - ولتسمها مؤقتاً «الطوافة»، عملاً بقاعدة أسلافنا؛ إذا تبين المعنى فلا مشاحة في الألفاظ - بما تبين عنه وما تخفيه، على النحو الذي تطورت به عبر حقب معينة، وبإعمال آليات نظرية في التحليل والنقد محددة، وعبر دراسة حالات عدة (العراق، سوريا، لبنان، البحرين، اليمن، الكويت، العربية السعودية، إيران وباكستان)، وذلك عبر فصول نظرية وتطبيقية تفحص طبيعة هذه الظاهرة - تصيير الشعب طوائف قابلة للتناحر في أية لحظة وعند أول شرارة - وقد رسم هذا اللفيظ خريطة هذه السيرورة الطوافية، وحللها، واستكشف لا فقط «كيف» حدثت، وإنما «لماذا» حدثت.

العربية. ذلك أن هذا النمط من الحكم السياسي هيمن لأمد طويل على سياسات الشرق الأوسط، فكان أن أرخى ميراثه الثقيل بظلاله العميقة على سياسات المنطقة وعلى مجتمعاتها. وبالجملة، السلطوية - وليس اللاهوت - هي العامل الحاسم الذي شكل عملية الطوافة.

تُرى: كيف حدث هذا الذي حدث؟ والجواب: لقد عمدت الأنظمة السلطوية - عن قصد - إلى تسخير الهويات الطائفية بمختلف الطرق، وتلك إستراتيجية منها اتخذتها عنوة لإفشال مطلب التغيير الاجتماعي الملح، وبغاية استدامة سلطتها المهترئة. فضعف الدولة، وليس قوتها، هو الذي حمل هذه الأنظمة على تأجيج عملية الطوافة. وما الضعف سوى الوجه الآخر للاستبداد. إذ الدولة السلطوية، وعلى عكس ما تريد أن تظهر به، عاجزة عن حكم المجتمع بحكم ديمقراطي، وهي إذ تلجأ إلى الزبونية والمحسوبية والمحاباة تخلق أزمة مشروعية. وذاك ديدن ما سماه الباحث السياسي الأمريكي جويل ميجدال منذ أمد - في كتابه «المجتمعات القوية والدولة الضعيفة: العلاقات بين الدولة والمجتمع ومقدرات الدولة في العالم الثالث» (1988) - باسم «الدولة الضعيفة». إذ بما أنه للدولة الضعيفة مقدرة محدودة على ممارسة الرقابة الاجتماعية على المناطق التي تدعي السيادة عليها، فإنها تلجأ إلى خلق التناقضات بين الانقسامات الاجتماعية (فرق تسد) عن طريق التقسيم والتحكم؛ ومن ثمة تخلق الطوافة.

والحال أن هذا السياق السياسي المضاد للديمقراطية ضروري لفهم الصراع الطائفي في المجتمعات الإسلامية اليوم، لا سيما في تلك المجتمعات التي تحتوي على أمزوجة من الساكنة

الطوافة «عرض» وما كانت «أصلاً»، وهي «نتيجة» وليست «سبباً»، وشأنها أنها «تُبنى» لا أن «تُعطى». ومن هنا، دعوة أصحاب الكتاب إلى ضرورة تغيير النقاش حول الطوافة، وذلك بتوفير بديل يمكنه أن يفسر - التفسير الأفضل - الصراعات الواقعة في الشرق الأوسط، ولماذا تحولت حركة انتفاضات غير طائفية أو عبر طائفية (غير عنيفة) إلى معارك طائفية وحروب أهلية. وهكذا، يلاحظ مقدماً الكتاب، كما المساهمون فيه، أن الصراعات الطائفية اشتدت كثيراً في الآونة الأخيرة. لكن السؤال الذي يطرحونه هو: لماذا؟ ما الذي يفسر تأجج الصراع الطائفي في هذه اللحظة بالذات في العديد من المجتمعات الإسلامية؟ وكيف يمكن أن نفهم هذه الظاهرة الفهم الأفضل؟

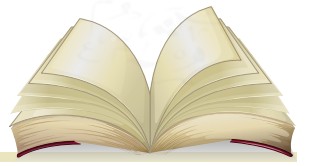
ولكي يجيب الباحثون عن هذه التساؤلات، يقترحون إعمال اصطلاح «الطوافة». ويعرفان «الطوافة» على النحو التالي: الطوافة هي سيرورة (عملية) شكلها مختلف الفاعلين السياسيين الذين يشتغلون داخل سياقات خاصة، رامين بذلك إلى أهداف سياسية تقتضي التعبئة الشعبية حول سمات هوياتية خاصة (دينية)، كما أن الديناميات الطبقيّة والدول الهشة والتناقضات الجيو-سياسية تشارك بدورها في صناعة عملية الطوافة هذه.

هي ذي «الطوافة»، فما أسبابها؟ يستبعد الباحثون أن تكون «الطوافة» عملية قديمة شكلت «ماهية ثابتة» في التاريخ الإسلامي عابرة له منذ زمن الفتنة، ويقولون بما يمكن أن نسميه «الأطروحة السياقية» - ضداً على «الأطروحة الماهوية» - التي ترى أنه يوجد في السياق العربي المعاصر ما أنشأ الطوافة. وهذا الذي أنشأ الطوافة هو ما يسمونه «النزعة السلطوية» أو «النزعة التسلطية» Authoritarianism للأنظمة

وتشهد بنية كتاب «الطوافة» على تصميم محكم: تقديم بقلم المشرفين، وقسمان: نظري وعملي، وخاتمة. وقد تضمن التقديم التعريف بالظاهرة وسياقاتها وعللها، كما تضمن القسم النظري (أربعة فصول) الحديث عن الطوافة من منظور تاريخي وجغرافي - سياسي نظري، ودار القسم التطبيقي (تسعة فصول) على طريقة اشتغال عملية الطوافة من خلال دراسة حالات (على الترتيب: باكستان، العراق، سوريا، السعودية، إيران، اليمن، البحرين، لبنان والكويت)؛ فضلاً عن خاتمة عبارة عن سيناريو لإعادة بناء الدولة في الشرق الأوسط ونزع الطابع الطائفي عن السياسات المتبعة في معظم دوله.

تقديم الكتاب

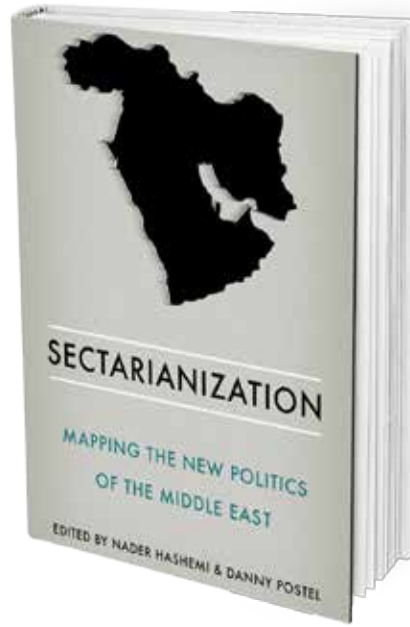
اصطنع مقدماً الكتاب - نادر هاشمي وداني بوستل - منهجا في التقديم، قام على لحظتين أساسيتين: لحظة الهدم، ولحظة البناء. فقد عمداً، بداية، إلى هدم التصورات السائدة حول الطائفية بالشرق الأوسط، لا سيما منها ذلك التصور - يمكن أن نسميه «التصور الماهوي» - الذي يعتقد أن هذه المجتمعات محكومة بالصراع الطائفي منذ أن جاء الإسلام وإلى الأبد. وذلك بناء على تعلق أن الوضع الحالي سليل فجر الإسلام وانشقاقاته الكلامية السياسية الأولى. وهذا التصور هو ما تكاد تجمع عليه الأصوات الصحافية الغربية، كما الأصوات الأكاديمية سواء بسواء. ومجمل دعاوى مقدمي الكتاب والمساهمين فيه تدور على بناء تصور مضاد. إذ الكتاب محاولة لتفنيد هذا «التصور الاستشراقي الخمول» الذي يرى في «الطوافة» المتأصلة والمتجدرة والعابرة للتاريخ» مفتاحاً لفهم الداء الذي أصاب الشرق الأوسط في مقتل. إذ



بوادر الأزمة تعود لرسم هذه الحدود أم لا. وقد خصص إلى أن «التهديد الحقيقي» لم يأت من موقع الحدود نفسها، وإنما مما أمسى يحدث داخل هذه الحدود في العشرية الأخيرة، من مزيج متفجر من القمع السياسي والجمود السوسيو-اقتصادي والتخلف البشري، مذكرا من يريد إعادة تشكيل مجتمعات وسياسات المنطقة على ضوء الطائفية والعرقية بأنهم إنما يغفلون عن هذه الحقائق الاجتماعية والاقتصادية. رابعا: ختم الباحث الأمريكي المعروف في عمان ببحوثه عن الإمامة والشورى آدم جايزر -الذي يعد كتابا في موضوع: «الأمة المنقسمة: الطوائف والمدارس الإسلامية»- هذا الباب ببحث تحت عنوان: «مقاربة للطوائف من خلال مروية الهوية»، سعى من خلاله لنقل دراسة الطوائف الإسلامية والهوية الطائفية من اعتبارها سمة لازمة للهوية الدينية -الاعتبار الكلاسيكي- إلى اعتبارها دينامية وسيروية موعى بها لتبني بعض أشكال مروية الهويات وحفظها وتوجيهها في مواضع معينة وأوقات محددة. ذلك أن من شأن الأفراد أن يجدوا أنفسهم متورطين في «مرويات طائفية» خاصة. وهي مرويات لبعض الشيعة العراقيين ولبعض أتباع الدواعش أمست تتنوع وتعلن عن نفسها على نحو درامي. لكن ما يهم جايزر هو فحص كيف يحدث التوريط في مروية التماهي عبر الزمان، وهو يرتئي أن على الفاعلين في مجال الطوائف أن يوقفوا -لدواع عدة- المشاركة في تغذية مروياتهم الطائفية، وأن يسقطوا من اعتبارهم العنصر الطائفي في هوياتهم.

هذا... ويتعلق الباب الثاني من الكتاب بدراسة كيفية اشتغال الطوائف من خلال حالات. وقد عمل بحث فاني نصر -وهو عميد وأستاذ العلاقات الدولية في جامعة هوبكينس، وله كتابان حول الإحياء الشيعي وصناعة سلطة الدولة في الإسلام- «السياسة الدولية والمتطلبات الداخلية والتجيش الهوياتي: الطوائف في باكستان (1779-1998)» على الوصل بين بابي الكتاب. ولاحظ أن درجة شدة الصراع الطائفي تتباين جغرافيا حيث تتعايش الساكنة السنة والشيعة. وتساءل: ما هي العوامل التي تفسر هذا التباين؟ والذي عنده أن كل شيء موكول إلى دور الزعماء الدينيين والمبشرين السياسيين. ويدعو إلى اعتبار عامل ممثلي الدولة في التجيش الهوياتي. ذلك أنه في الماضي عالجت نظريات النزاع العرقي الدولة باعتبارها فاعلا سلبيا في التجيش الهوياتي، بينما يرى نصر أنه عوض اعتبار الدولة ضحية سلبية للتجيش الهوياتي ينبغي اعتبارها الفاعلة فيه. إذ للدولة يد كبرى في التطويق، وهي تستعمل المتصارعين وتوجههم وتشجع التجاذبات الهوياتية وتستثيرها. ولا يعني هذا أن فاعلي الدولة يدعمون قضية طائفة ضد أخرى، وإنما يأخذون بالحسبان الربح السياسي الذي يجنونه من النزاع بين الهويات المتنافسة.

وقد دار الفصل الثاني من هذا الباب «العلاقات



ضاف في الظاهرة. وهكذا، نجد على الترتيب البحوث التالية: أولا: بحث أسامة مقدسي -أستاذ التاريخ وأستاذ كرسي الدراسات العربية بجامعة رايس، وصاحب كتاب: «ثقافة الطائفة»- والذي حمل عنوان: «مشكلة الطوائف في الشرق الأوسط في عصر الهيمنة الغربية». وقد ركز على البعد الحديث لمسألة الطوائف. إذ ما كانت هي صنعة وسيطية، وإنما هي نتاج القوى الحديثة والظروف الحالية. وقد نبه صاحب البحث إلى الجدل الذي حدث بين المرويات المحلية للاستعداد الطائفي والتدخل الغربي، داعيا إلى استعادة تاريخ التعايش في الشرق الأوسط باعتباره أمسى حاجة مستعجلة أكثر من أي وقت مضى. ثانيا: بحث الباحث السياسي باسل صلوخ -أستاذ في الجامعة الأمريكية ببيروت، وصاحب كتاب «سياسة الطوائف في لبنان ما بعد الحرب» (2015)- بعنوان «الطوائف الجيو-سياسية في الشرق الأوسط». وقد رسم الباحث معالم صورة عامة عن سيروية الطوائف وعن صلاتها بالديناميات الجيو-سياسية بالمنطقة، لافتا العناية إلى أن موجة الطوائف سائرة إلى التمدد عبر المنطقة كالحريق، مؤكدا على أن جذورها لا تعود إلى ما قبل العصر الحديث بقدر ما أسهم في تأجيحها الفاعلون السياسيون المحليون اليوم... وذلك بغية الدفاع عن الأنظمة السلطوية ضد منافسيها المحليين. وقد وقف على الإسهام الإيراني السعودي في عريضة المرويات الهوياتية والرمزية، وأبرز كيف تأجج ذلك بعد الانتفاضات العربية، وحذر من عواقب ذلك على المنطقة برمتها. ثالثا: بحث الباحث يزيد صايغ «المنطقة العربية ونقطة التحول الكبرى». وفيه حاول الباحث أن يجد معنى وسط الفوضى التي تعم الشرق الأوسط اليوم -وقد بلغت أوجها مع داعش- وذلك بالعودة للحدود التي رسمتها اتفاقية ساكس-بيكو منذ قرن، ساعيا إلى فهم ما إذا كانت

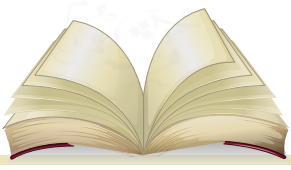
سنية وشيعية. وإذا كان منظر الحرب البروسي كلاوزوفيتش قال: إن الحرب مواصلة للسياسة بوسائل أخرى، فإن الصراع الطائفي في الشرق الأوسط اليوم استدامة للحكم السياسي السلطوي عبر تجيش الهوية. بهذه الخلفية السياقية تصير الطوائف مفهومة في الشرق الأوسط اليوم. ذلك أن الهويات الطائفية لا يمكن أن تحشد وأن تُجيش إلا إذا تم تسخير الاختلافات في الاعتقادات والذاكرة التاريخية للدفع بالجماعات الدينية إلى مبادرة جماعية طائفية تدور على هويات خاصة. ومن هنا أيضا إشكال هذا الكتاب برمته: لماذا تشتد الصراعات الطائفية اليوم في الشرق الأوسط؟ ولماذا في هذه المنطقة بالذات وليس في غيرها؟

هو ذا ما ينطبق على العديد من البلدان الإسلامية منذ الستينيات من القرن الماضي. على أن المفتاح الجوهرى لفهم التطور الذي قاد إلى بروز الطوائف نجده في عام الثورة الإيرانية. ومنذ حينها لاحت في الشرق الأوسط معالم تنافس إيراني سعودي -اشتد أحيانا ولان أحيانا أخرى- كانت الطوائف إحدى معالم البارزة. ولقد شكل «الربيع العربي» عام 2011 نقطة تحول جوهرية في العلاقات السعودية الإيرانية خاصة، وفي العلاقات السنية الشيعية بعامة. وكل من إيران والسعودية اصطف وراء الطوائف بغاية صرف الانتباه عن المطالب الشعبية بالتغيير السياسي، ولكسب مزيد من النفوذ داخل المنطقة. وقد بدا ذلك واضحا في الصراع على البحرين، وفي تحميل كل دولة للأخرى وزر الانتفاضات التي وقعت على أراضيها، كما تجلى فيما بعد على أرض سوريا واليمن والعراق ولبنان. وكانت قضية إعدام نمر النمر آخر ما أجج هذا الصراع الطائفي، حتى حمل تركيا على المشاركة في الجدل. وقد لعبت وسائل الإعلام دورا خطيرا على هذا المستوى بالنفخ في الجمر. وبهذا، أصبح التجيش حول الهويات الطائفية أيسر نتيجة لهذه الأحداث.

وبالجملة، تكمن أطروحة الكتاب الأساسية في القول: الاستبداد لا الميراث هو السبب في تنامي الطوائف. وما كانت الطائفية ماهية راسخة للدول الإسلامية، وإنما كانت تشتد وتلين حسب السياقات. ومن ثم لزم تجاوز الوقوف بالتحليل على التباينات العرقية الأولى ودفع السلطات الدينية بهذه التباينات، نحو تسليط العناية على أثر سلطة الدولة وعلى العلاقات بين الدولة والمجتمع.

أقسام الكتاب وفصوله

تم تبويب الكتاب إلى بابين حسب زوايتي نظر: سعى الباب الأول -الموسوم: «الطوائف من منظور تاريخي وجيو-سياسي ونظري»- إلى توفير صورة شاملة عن ظاهرة الطوائف. وقد أسهمت في هذا الباب طائفة من أبرز الباحثين في هذا الحقل، بحيث لا يكاد يوجد فيها باحث لم يصدر له بحث



تكريس السلطوية وفي إقامة التوازن بين القوى الداخلية المتعارضة، وترى أن المخرج من الوضع ليس الطوافة بقدر ما هو الحد من السلطوية.

خاتمة الكتاب

الدعوى المفتاح في هذا الكتاب هي أن الطوافة تفشل في تفسير الفوضى الحالية القائمة بالشرق الأوسط. ذلك أن النظر إلى المنطقة عبر منظور طائفي من شأنه أن يضرب الحقائق المعقدة المتعلقة بسياسة المنطقة أكثر من أن ينيرها. والحال أنه يجب النظر إلى عدم الاستقرار الحالي بكونه ناجما عن سلسلة أزمات التنمية التي تجد أوجها في انهيار سلطة الدولة. والحدس الجوهري في الكتاب هو أن السياسة الطائفية في الشرق الأوسط المعاصر «أثر» عميق من آثار السلطوية السياسية وليست «سببا». ذلك أن الحكم السلطوي فشل في تدبير العلاقات بين الجماعات، فكان أن ركب الدعاة السياسيون على الطائفية بغاية إخفاء ضعف الدولة، وكان أن عملوا على التجييش الشعبي للحقد الطائفي وعلى استعداد الجماعات بعضها ضد بعض.

وأخيرا، ما البديل؟

أجمع المساهمون على الدعوة للحد ما أمكن من التنافسات الجهوية - التي يشكل التنافس السعودي الإيراني لبها - باعتباره شرطا مسبقا لتحقيق أي تقدم من شأنه التقليل من العنف الطائفي في الشرق الأوسط. لذلك لا غرابة أن يترك المشرفان على الكتاب الكلمة الأخيرة لخبير إعادة بناء السلام تيموتي سيسيك. وقد استكشف وصفات لنزع الطوافة وقلب موازين النزوع الطائفي المتصاعد في الشرق الأوسط، وطرح الموضوع في إطار مقارنة مع عديد من التجارب الدولية، شأن تجربة أيرلندا الشمالية والبوسنة. وهو يعول على المجتمع المدني وعلى الأمم المتحدة وعلى المنظمات المتوسطة الجهوية وعلى منظمات الشراكات التنموية في بناء السلم في منطقة شديدة الطوافة، منهيا بذلك بحثه هكذا بنبرة إيجابية تفاؤلية.

- الكتاب: «الطوافة».

- المشرفان: نادر هاشمي وداني بوستل.

- الناشر: «Oxford University Press»، 2017 م.

- عدد الصفحات: 384 صفحة.

\* أكاديمي مغربي

بطرق مختلفة. ورأى أن سياسات إيران هذه ما كان الباعث عليها التعاطفات الطائفية المفترضة، لا ولا المزاعم بشأن نزوع إيران إلى الهيمنة على المنطقة، وإنما مقتضيات «السياسة الواقعية». ودار الفصل السادس على الحالة اليمنية. وقد عمدت عالمة السياسة ستيسي فيلبريك ياداف - صاحبة كتاب: «الإسلاميون والدولة: المشروعية والمؤسسة باليمن وبلبنان» (2013). إلى تقديم عرض تاريخي نقدي عن عملية الطوافة المعقدة باليمن، منتهية إلى أن لا شيء كان قد بذل من أجل تضادي البعد الطائفي الذي يدمر اليمن الآن، وأن المؤسسات الانتقالية التي أعقبت الانتفاضة اليمنية ساعدت - بالعكس من ذلك - على إنتاج الصراع الطائفي الذي كانت سعت إلى حله، وأن ما تفاداه اليمنيون من طائفية في انتفاضتهم إنما حققتهم الحرب بطرق لم تكن لتخطر على بالهم. ويعرض الفصل السابع إلى الحالة البحرينية. وفيه يتطرق توبي ماتيزن - صاحب كتاب: «الخليج الطائفي: البحرين والعربية السعودية والربيع العربي الذي لم يحدث» (2013)، وكتاب: «السعوديون الآخرون: السنة والمنشقون والنزعة الطائفية» (2015) - إلى التاريخ الطويل لسياسة التجييش العابر للطوائف في الجزيرة. ويظهر كيف أن العائلة الملكية بالبحرين تبنت حركات إسلامية سنية لكي تقيم التوازن بها مع الحركات الشيعية التي بزغت بعد الثورة الإيرانية، وكيف أنها اتبعت سياسة التأثير عبر الطوافة من خلال القمع الدموي للانتفاضة عام 2011، ويختم بأن الطوافة مقصودة في البلاد، وهي إستراتيجية لإطالة أمد النظام، وإحباط إمكان تكتل ينشد التغيير الديمقراطي.

ويتعلق الفصل الثامن بعمار الطوافة بلبنان. وهو بقلم باسل صلوخ ضمن مساهمته الثانية في الكتاب. ويرى فيه أن ثمة «مأسسة» للهويات الطائفية في النظام السياسي اللبناني، وذلك كإثر ارتبط بتشكيل الدولة وليس كأساس تاريخي عتيق. ذلك أن مأسسة الهويات الطائفية تم بناؤها تاريخيا وقادت إلى تفاهات قبل الحرب وبعدها، وهي تعود إلى سياسة طوافة الهوية وإلى العلاقات بين الجماعات وإلى أنماط التجنيد السياسي في البلد. ويقترح الباحث إعادة التفكير التخليفي في هذه التفاهات بما أنها انتهت إلى المأزق الحالي، منهيا ذلك بالحديث عن حركة «طلعت ريحتكم» التي تعد بمثابة شكل مقاومة للنظام الطائفي. ويدور الفصل الختامي على الحالة الكويتية؛ حيث تعتمد مادلين ويلز في مقالها: «الطوافة والسلطوية والمعارضة بالكويت»، إلى التأكيد على دور النظام في

الطائفية قبل الطوافة في عراق ما قبل 2003، والذي كتبه فنار حداد - وهو باحث في جامعة سنغافورة، وصاحب كتاب: «النظام الطائفي في العراق: رؤى تنازعية حول الوحدة» (2011) - على تحديد دلالة «الطائفي» و«الطائفية»، ورسم صورة للتداخلات في العلاقات السنية الشيعية بالعراق قبل الاحتلال الأمريكي. ورأى الباحث أن انفجار الصراع الطائفي الذي نشهد عليه اليوم بالعراق ما كان مجرد نتاج حتمي للتعدد الطائفي في ذاته ولذاته، وإنما هو ثمرة مرة لبروز الدولة القومية الحديثة. فهو نابع من الديناميات السياسية المتجادل حولها، ومن صلته ببناء الأمة والهوية القومية وسوء تدبير التعدد الطائفي، وفي النهاية بمشروعية الدولة. وتناول الفصل الثالث الحالة السورية؛ حيث عمد أستاذ الأنثروبولوجيا البرازيلي بول جابرييل هيلو بينتو - صاحب كتاب: «إثنوغرافيا الإسلام» (2012) - إلى تسليط الضوء على طوافة الصراع السوري الذي كان قد بدأ مختلفا غير طائفي (طائفي هي الحرية)، وانتهى طائفا. وأبرز الباحث كيف أن نظام الأسد - وعن قصد - لعب على الحبل الطائفي عبر استعمال آلية القمع - التوزيع الطائفي للعنف - وكيف أن بعض الزعماء السنة عضوا على الطعم وألهبوا طوافة الصراع من أسفل، وكيف تداخلت عوامل أربعة في صناعة الطوافة: من الأعلى (الدولة)، ومن الأسفل (المجتمع)، ومن الخارج إلى الداخل (القوى الخارجية)، ومن الداخل إلى الخارج (الانتشار نحو الدول المجاورة). وفي الفصل الرابع، أوضحت عالمة الأنثروبولوجيا السياسية المتخصصة في الشأن السعودي مضاي رشيد - في مقالها «الطوافة باعتبارها ثورة مضادة: أجوبة السعودية على الربيع العربي» - كيف أنه مباشرة بعد بداية انتفاضتي تونس ومصر وضعت الطوافة على رأس أولويات الثورة المضادة التي استعملها النظام السعودي للمبالغة في تبيان الفوارق الدينية وتضادي تطور سياسات غير طائفية. ولصرف الانتباه عن المزاج الثوري الذي انتشر في المنطقة، أقام النظام السعودي التفرقة بين الأغلبية السنية والأقلية الشيعية، بحيث أن الجماعتين صارتا عاجزتين عن إبداع رؤى مشتركة للحراك السياسي. وفي الفصل الخامس، عمد المؤرخ البريطاني ذو الأصول الإيرانية إسكندر صديغي بوروجودي - في مقاله: «العمق الإستراتيجي للانتفاضة المضادة ومنطق الطوافة: المذهب الأمني للجمهورية الإسلامية الإيرانية وآثاره الجهوية» - إلى إظهار كيف أن إيران أسهمت في منطلق الطوافة في كل من العراق وسوريا

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٣١.٢٤٦٤٤ - ٣٢.٢٤٦٤٤ +٩٦٨ ، فاكس : ٥٧٩٩.٢٤٦.٩٦٨+

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net - al.tafahoom@gmail.com - tasamoh@gmail.com